بِمَ تقدم الأوروبيون.. وتأخرنا؟!



اسم الكتاب: بِمَ تقدم الأوروبيون.. وتأخرنا؟

التأليف: للمجدِّد المجاهد عبد الله النديم

دراسة وتحقيق: أ.د. محمد عمارة

موضوع الكتاب: فكر

عدد الصفحات: 208 صفحة

عدد الملازم: 13 ملزمه

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2016/1774

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 528 - 5

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

1436 هـ
2016م



بِمَ تقدم الأوروبيون.. وتأخرنا؟!

للمجدِّد المجاهد عبد الله النديم

دراسة وتحقيق

أ.د. محمد عمارة



1

الانتماء الثقافي عند عبد اللّه النديم

(1261 – 1313 هـ، 1845 – 1896م)

6

كلمات

(وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب. وما اختار الله– تعالى– للمصائب إلا الرجال، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال.

والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر.

والشدة إن صوتت بجلجلها، وحلت بكلكلها، ماذا عسى أن يكون، مما تتخيله الظنون؟.

أليس الأمر يرجع إلى موت وحيرة؟ وهذان لا يملكهما إلا الله، وقد فرغ من تقديم الأشياء قبل خلق المسببات والأسباب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1] [2].

عبد الله النديم

---

(1) الحديد: 22.

(2) عبد الله النديم. مجلة (الأستاذ) العدد الرابع عشر ص 318 والثاني والأربعون ص 1032. طبعة مصورة عن الأصل. القاهرة. دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة 1984م

تعريف في سطور

النديم.. هو:

- عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحَسَنِى (1261 – 1313 هـ – 1845 – 1896م).
- كاتب وشاعر وخطيب، وسياسي مناضل، وعالم في كثير من العلوم الإسلامية، وراسخ القدم في علوم العربية الفصحى، ومبرز في النظم والكتابة باللهجة العامية.
- ولد بالإسكندرية، وحصَّل ما حصل من الثقافة والعلوم بالجهد الذاتي والمناهج غير النظامية.
- احترف بعض المهن، وشغل عددًا من الوظائف الصغيرة والثانوية.
- أنشأ (الجمعية الخيرية الإسلامية)– في الإسكندرية– للرعاية الاجتماعية، ولتعليم أبناء الفقراء.
- تفتحت مواهبه – ككاتب – في صحافة تيار الإحياء والتجديد، الذي قاده جمال الدين الأفغاني (1254–1314 هـ، 1838–1897م)، فكتب في صحف (المحروسة) و(العصر الجديد).

- شارك في قيادة الثورة العرابية (1298- 1299 هـ - 1881- 1882م) وكان أبرز خطبائها المهيجين وألمع كتابها الثوريين. وأصدر إبَّان الثورة صحيفة (التنكيت والتبكيت)- رجب سنة 1298 هـ - 6 يونيه سنة 1881م- و(الطائف)- التي حلت محل (التنكيت والتبكيت)- ومثلت لسان حال الثورة.
- بعد هزيمة الثورة، أمام التدخل العسكري للاستعمار الإنجليزي، واحتلال مصر، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم، فاختفى- في ذي القعدة سنة 1299هـ سبتمبر سنة 1882م - عشر سنوات، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة.. وفيها أَلَّف عشرين كتابًا، تشهد موضوعاتها- بل وعناوينها- على عمق تكوينه العلمي في علوم الإسلام والعربية، وعلى قدمه الراسخة في مدرسة الإحياء والتجديد.
- وبعد القبض عليه- نتيجة وشاية- في صفر سنة 1309هـ سبتمبر 1891م- حُبس أيامًا، ثم نفي من مصر فأقام بفلسطين، حتى عَفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني (1291 - 1361 هـ - 1874 - 1944م) فعاد إلي مصر سنة 1310 هـ 1892م، وأصدر مجلة (الأستاذ)- (1310هـ 1893م).
- وبسبب مقالاته في (الأستاذ) نفاه الإنجليز ثانية، فذهب إلى

فلسطين، ثم إلى الأستانة، فعمل فيها، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغاني، حتى وافاه الأجل، ودفن هناك.

- له من الآثار الفكرية والأدبية- غير الصحف التي أصدرها وحررها- كتب: (كان ويكون) و(كتاب الاحتفا في الاختفا) و(السانحة في علوم الفاتحة) و(الآلام واللذات في اتصال الروح بالذات) و(صَرْف الوضمَة[1] عن صِرْف[2] العصمة) و(وفد البدعي على باب الشفيع) و(خلاصة ما كان في ليس في الإمكان أبدع مما كان) و(الفرائد) و(طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله) و(حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحد في نحر الملحد) و(ترصيع الماس في خير الناس) و(مأتم البُكيّ على آل النبي) و(وطنية الشرق) و(النحلة في الرحلة) و(السكر النبات في تربية البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد) و(الدر النفيس في تاريخ بني إدريس) و(نيل الأرب في أخبار العرب).

كذلك، له ديوانان لأشعاره.. وروايتان تمثيليتان عنوانهما (العرب) و(الوطن).

---

(1) الوَضْمَة – بفتح الواو وسكون الضاد – الجماعة من الناس.

(2) الصِّرْف – بكسر الصاد وسكون الراء – الخالص من الشيء.

تمهيد
عن الموضوع.. والمنهاج

عندما يكون موضوع هذه الصفحات عن (الانتماء الثقافي للنديم)؛ فإن أول ما يجب هو تحرير مضامين المصطلحات.

* **فالانتماء**: هو الانتساب، الذي يجسد خيوط الولاء التي تشد الإنسان المُنْتَسِب إلى ما ينتسب إليه، فيرتبط به، وينجذب إليه، ويخلص له الولاء والانتماء.

* **والثقافي**: نسبة إلى الثقافة- التي هي جماع المهارات التي تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم في تهذيبها- تثقيفها- وارتقائها على درب المثل والمقاصد والنماذج التي صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التي يؤمن بها هذا الإنسان، فهي- الثقافة- مع (المدنية)- التي تمثل عمران (الواقع)- جماع الحضارة والعمران.

* والحديث عن الانتماء والانتساب والولاء الثقافي لعبد الله النديم، لابد وأن يحدد موقع انتمائه الثقافي إزاء:

(أ) الوافد الثقافي الغربي- الذي فتحت أمامه الأبواب، في عصر النديم، أكثر من ذي قبل.

(ب) وإزاء موروثنا الفكري والثقافي، وتيارات هذا الموروث.

(جـ) وموقع النديم- ولاء وانتماء- من دوائر الانتماء الثقافي:

1 - الوطنية- التي كانت تمثلها مصر.

2 - الدائرة الشرقية- والتي كانت تستخدم، في أدبيات ذلك العصر، للدلالة على الدائرة الإسلامية، وما في أوطانها الشرقية من أجناس وأقوام، ومن ملل وأديان.

3 - الدائرة الجنسية- التي تحدد حدودها الأعراق.

4 - الدائرة العثمانية- الجامعة لأقوام وملل شرقية متعددة. أين كانت ثقافة النديم من هذه الدوائر والمؤثرات والمرجعيات؟

• ولقد اعتمدت هذه الدراسة واحدًا فقط من الآثار الفكرية للنديم؛ كي يكون الديوان الذي نكتشف فيه ومنه انتماءه الثقافي، وهو مجلة (الأستاذ).

ولم يكن سبب الوقوف عند (الأستاذ)، دون غيرها من صحف النديم وكتبه، بسبب حجم الدراسة- الذي قد يقتضي الاقتصاد- غير المخل- في المصادر؛ وإنما كان الاكتفاء بهذا المصدر- مجلة (الأستاذ)- مؤسسًا على العديد من الأسباب:

1 - فمجلة (الأستاذ) هي آخر الأعمال الفكرية لعبد الله النديم، وفيها تجسد الموقف الأخير الذي انتهت إليه وختمت به رحلته الثقافية، التي

حفلت بالمراحل والأطوار والمواقف والآراء.

2 - وفيها تمثلت مرحلة نضجه الفكري، حتى إنه يسمي أعداد- أجزاء- هذه المجلة- في آخر مقالاته بآخر أعدادها- يسميها (أجزاء كتاب العبر، وباب المبتدأ والخبر)[1]؟!.

3 - وعلى صفحات هذه المجلة تناثرت خلاصات تأملاته في سنوات اختفائه العشرة، بل لقد كان نشر هذه المجلة لخلاصات موضوعات المؤلفات العشرين التي كتبها النديم في فترة اختفائه واحدًا من مقاصد إصدار هذه المجلة.. يعلن عن ذلك شقيقه (عبد الفتاح النديم الإدريسي)، في العدد الأول من (الأستاذ)، فيقول: (والحامل لي على فتح هذه الجريدة[2]، أني رأيت شقيقي الفاضل السيد عبد الله أفندي النديم، المنشئ الشهير، قد مضى مدة اختفائه مشتغلًا بوضع كتب لا تخلو من الفوائد، فاستأذنته في نشرها، ومع كوني اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة، فإني وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه)[3].

ففي مجلة (الأستاذ) خلاصة مؤلفات النديم، والآراء التي ختم بها مرحلة جهاده الفكري، بعد حقبة الاختفاء.

---

(1) (الأستاذ) العدد الثاني والأربعون. ص 1031.

(2) كان عبد الله النديم (محرر الجريدة) وكان شقيقه (مدير الجريدة).

(3) (الأستاذ) العدد الأول.. ص3.

4 – ويزكي هذا الاختيار لهذا المصدر – أيضًا – منا تميزت به حقبة صدور (الأستاذ) من بعد عن ملابسات الهياج الفكري وثقافة الشعارات وصياغات التعبئة الوطنية الحادة، التي تميزت بها– وكان لابد أن تتميز بها– مرحلة الثورة العرابية، ومقالات النديم أثناءها.

5 – كذلك، كانت المواجهة– إبَّان صدور (الأستاذ)– مع (الآخر الثقافي)، والوافد الفكري الأوروبي، حقيقة قائمة على أرض الواقع الثقافي– وليست مجرد احتمال– فكانت (الأستاذ) ميدانًا من ميادين هذه المواجهة مع المنابر الثقافية والفكرية والسياسية التي مثلت (الآخر الثقافي) في ذلك التاريخ، وخاصة منبري (المقتطف) و(المقطم) اللذين تمثلت فيهما حملة التبشير بمذاهب الغرب وبالسياسة الاستعمارية.

6 – ثم إن حجم هذا المصدر – (الأستاذ)– كبير، فصفحاتها تربو على الألف– 1032 صفحة – .. الأمر الذي يجعلها– بمادتها الثقافية– وافية كل الوفاء بتحديد معالم الانتماء الثقافي لعبد الله النديم.

7 – ويزيد من أهمية هذا المصدر؛ مكانته في ساحة الفكر والثقافة الشرقية– وليس فقط المصرية– في ذلك التاريخ. فهذه المجلة الأسبوعية التي لم يزد عمر صدورها عن عشرة أشهر[1]، قد فاق انتشارها كل الصحافة

(1) صدر العدد الأول: الثلاثاء. أول صفر سنة 1310 هـ 24 أغسطس 1892م. وصدر عددها الأخير– الثاني والأربعون– يوم الثلاثاء 28 ذي القعدة سنة 1310 هـ 13 يونيو سنة 1893م.

المصرية في عصرها- جرائد كانت تلك الصحافة أو مجلات- يومية كانت أو أسبوعية أو شهرية تلك النشرات؟!. فعلى حين كان توزيع (الهلال)- الشهري- 740 نسخة.. و(المقتطف)- الشهري- 1300 نسخة.. و(المقطم)- اليومي- 1455 نسخة. و(الأهرام)- اليومي- 2775 نسخة.. فإن توزيع مجلة (الأستاذ) قد بلغ 2840 نسخة متفوقًا على سائر الصحافة المصرية في ذلك التاريخ!. فهي (ديوان) الانتماء الثقافي للنديم. وهي أوسع دواوين الانتماء الثقافي- لمجتمعنا- انتشارًا في تلك الحقبة المتميزة من حقب المواجهة بين ثقافتنا وبين الوافد الثقافي الأوروبي. الأمر الذي يرشحها مصدرًا وافيًا لدراسة موضوع هذه الصفحات.

الانتماء الثقافي.. والتقدم

كانت حياة النديم معركة في سبيل الاستقلال الوطني والتقدم الحضاري، تعددت فيها الآليات، وتمايزت (نبرات الصوت)، دون أن يغيب المقصد عن هذا المفكر السياسي المناضل في لحظة من اللحظات.

وفي الحقبة التي صدرت فيها (الأستاذ)- في ظل حكم الاحتلال الإنجليزي، وتحكم اللورد كرومر (1841- 1917م)- كان النديم يتحايل؛ كي يواصل جهاده، بالإعلان عن أنه لن يخوض في (السياسة)، بمعنى (الإدارة)، (.. وأما فن السياسة - من حيث هو - فإنه يدخل في موضوعها العلمي، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمي من الفروع السياسية) التي تدخل في صميم رسالة (الأستاذ)[1]. ومن هذا الباب لم تدع هذه المجلة ميدانًا من ميادين المواجهة مع الاستعمار الإنجليزي، ومع الوافد الثقافي الأوروبي- الذي قامت له منابر ثقافية وإعلامية رعاها الاحتلال الإنجليزي في مصر يومئذ- لم تدع (الأستاذ) ميدانًا من هذه الميادين إلا وخاضت فيه. ففي التصدي لسلطة الاحتلال المباشرة استخدم النديم أسلوب (الرفق)؛ لتحقيق الجلاء،

(1) (الأستاذ) العدد الأول ص 2، 3.

وكتب يقول: (وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها. وفي الإشارة ما يغني عن الخبر، فاعتبروا يا أولي الألباب!)[1]. أما في الفكر والثقافة، فلقد كانت أعداد المجلة صراعًا بين الانتماء الثقافي للنديم وأمته وبين الوافد الغربي الذي يبشر به (الأُجراء) و(العملاء)!.

ولهذه الملابسات؛ فإن حديث النديم عن الانتماء الثقافي للأمة، لم يكن لونًا من ألوان (الترف الفكري)، وإنما كان سلاحًا لمقاومة الاحتواء الاستعماري للأمة، وتحقيقًا لشرط من شروط التقدم الحقيقي، الذي يخرج الأمة من مأزق (التخلف الموروث) و(الهيمنة الوافدة).

والنديم، الذي كتب دراسة ضافية عن أسباب تأخرنا وأسباب تقدم الغربيين، رغم أن (الخَلْق واحد)- وجعل عنوانها: (بِمَ تقدموا وتأخرنا والخَلْق واحد)[2]؟!. ولعلها أقدم الدراسات في هذا الموضوع. كان مهمومًا بقضية (التقدم)، باحثًا عن عوامل التراجع الحضاري، وشروط النهضة. ولقد امتدت بصيرته إلى الجذور التاريخية لتراجعنا الحضاري، ورصد من عوامله الداخلية:

(أ) حكم التغلب وسلطان الاستبداد.

(ب) تجزئة السلطة وتشرذم الأقاليم في ديار الإسلام.

---

(1) المصدر السابق.. العدد الثاني والعشرون.. ص 528، 529.

(2) المصدر السابق.. العدد الخامس عشر.. ص 337 – 352.

(جـ) تراجع سلطان العلماء وتأثير المؤسسات العلمية والتعليمية.

(د) ضيق السلاطين بالحرية الفكرية، وتضييقهم على أرباب الأفكار الحرة وأهل الاجتهاد والتجديد.

وهي أمراض التخلف الداخلي، التي طرأت على حياتنا بعد حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية، عندما (جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات، وترجمت كتب الأوائل الحِكْميَّة وغيرها، وفتحت بابًا أغلقه الجهل قرونًا طويلة. ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة، وجاء وقت المتغلبين، فتجزأت المملكة، وتصدَّى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس، فانطفأت أنوار العلوم الشرقية، وضيق ملوك الشرق على أرباب الأقلام)[1].

وأبصر النديم دور التحديات الخارجية التي جابهت المسيرة الحضارية لأمتنا، دورها في تنمية الأمراض الداخلية للتراجع الحضاري، وفي إطالة عمرها، والحيلولة دون الخلاص منها. وعلى هذه الجبهة رصد تحديات الغزوة التترية، والحروب الصليبية.م. ودورهما في استدعاء ودعم سلطات التغلب والاستبداد، وفي تراجع دور العلم وسلطان العلماء. فبعد أن (انبثت روح العلم في المسلمين، وظهر منهم علماء الشريعة الغراء، والآليات، والرياضيات، والطبيعيات، وزينوا الدنيا بعلومهم، وملئوها بآدابهم، ومزقوا ثوب الجهالة والضلالة بسيف الدين

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 348.

والعلم. جاءت فتنة التتار، فقهرت سير المسلمين، وأوقفت التقدم العلمي. وأعظم منها فتنة الحروب الصليبية التي غرست العداوة بين الملتين الإسلامية والمسيحية، ولاشت القوة العلمية بالقوة العدوانية، فأخذ العلم في الانزواء، ثم في التلاشي بموت أهله وإقفال مدارسه وإحراق كتبه ونهبها.)[1].

وبعد الرصد لأسباب التخلف التاريخي، الداخلي منها والخارجي، نبه النديم على أن التقدم إنما يمثل حركة شاملة للنهوض لابد فيها من تضافر (الملوك- والدول) و(العلماء وأرباب الأقلام والأفكار) و(الأغنياء وجمعيات وشركات التجارة والصناعة والزراعة).

فإذا كان (التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة، بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعْد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات)، فإن التقدم مشروط (بإطلاق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات، تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة، وتعميم المعارف في المدن والقرى، ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حيرة العلم، واجتماع كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، وبذلك يمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا..)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والثلاثون. ص 730.

(2) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 352.

فلم يكن النديم داعية لمطلق (التقدم) ولا لأي (تقدم)، وإنما هو هنا داعية (للتقدم الذي يوقف تيار أوروبا شيئًا فشيئًا، وذلك بمضارعتها قوة وعلمًا).. ولهذه الحقيقة التي ميزت التقدم الذي دعا إليه النديم، والتي ميزت وتميز الانتماء الثقافي الذي أفاض في الحديث عنه، جاء حديثه عن ضرورة تحديد (المرجعية.. والمبدأ) الذي تبني عليه الأمة أعمالها على درب التقدم، إخراجًا لها وخروجًا بها من الحيرة التي تعانيها إزاء التعددية في مرجعيات ومبادئ التقدم والنهوض.. (فرجال الشرق، أخذوا يحاكون أوروبا، وسعوا في جميع كلمتهم، وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم، مع بقائهم على التفرق، وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم، لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم، وهم حيارى بين المقعد والمقيم)[1]!.

ولم يترك النديم قارئه في حيرة إزاء الانتماء الثقافي (للمرجعية.. والمبدأ) الذي زكاه منطلقًا للتقدم الذي دعا إليه، فهو انتماء (للجامعة الشرقية) وثقافتها. تلك التي رآها إطارًا جامعًا يضم تحت جامعه الأكبر العديد من دوائر الانتماء الفرعي، التي تتكامل في بناء نموذج ثقافي شرقي- متميز عن النموذج الثقافي الغربي- الذي صارعه النديم على صفحات مجلة (الأستاذ).

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 461، 462.

وقضية (التعددية) في دوائر الانتماء الثقافي، تبرز في كتابات النديم عندما يعرفنا بنفسه، فهو: (عبد الله النديم، الإدريسي، الحَسَني، الأشعري، الشافعي، الخلوتي، الإسكندري)[1].. ففيه تتعدد وتتكامل دوائر الانتساب والانتماء إلي الأسرة، وإلي آل البيت من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- وإلى الأشعري- في علم الكلام وأصول الدين - .. وإلى الشافعي- في فقه الفروع- وإلى الخلوتية- في طرق التصوف.. وإلي الإسكندرية - في الميلاد والنشرة.

وفي عناوين مؤلفات النديم تطالعنا هذه الحقيقة.. ففيها كتاب عن (وطنية الشرق)، وكتاب (نحن وأنتم)- عن تميز الشرق من الغرب الأوروبي، وكتب عن التاريخ العربي والتراث الإسلامي. ومن بين كتبه العشرين عشرة خالصة للإسلاميات[2]..

أما مجلة (الأستاذ)، التي وصف أعدادها بأنها (أجزاء كتاب العبر، وباب المبتدأ والخبر)[3]، والتي كانت منبرًا للرابطة الشرقية، فإنه يصفها بأنها (جريدة إسلامية) تجاور (جرائد دينية مسيحية للبروتستانت)، وتصارع (جرائد الأجراء)- المبشرين بالانتماء الثقافي للغرب- من مثل (المقتطف) و(المقطم)[4]!!.

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون. ص 999.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1025، 1026.

(3) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1031.

(4) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 791، 792.

وإذا كان النديم قد بدأ حياته الفكرية والثقافية في صحافة تيار الجامعة الإسلامية، الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني، وختم حياته بصحبة الأفغاني في الآستانة- حيث شيعه الأفغاني إلى مثواه الأخير- فإنه قد أعلن- في مجلة (الأستاذ)- عن انتمائه لهذا التيار التجديدي، الذي سعى إلي تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام، ففضلًا عن إعادته نشر بعض مقالات (العروة الوثقى)- لسان حال ذلك التيار[1] - فإن حديثه عن الأفغاني وعن الإمام محمد عبده شاهد على هذا الانتماء. فهو يتحدث عن (السيد جمال الدين الأفغاني، الشهير، الغني عن التعريف، الرجل الذي جرب الأمور، وساح الأقطار، وخالط الأمم، وداخل السياسيّين ودرس التاريخ والحاضر والماضي، وامتد باعه في العقليات، أصبح أمة وحده بين ذوي الفضل- الأمر الذي دعا مولانا الخليفة الأعظم لاستدعائه وإدخاله في لفيف العلماء الخاص بمجلسه العالي، فقد أهَّلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر في السياسات العالية. وهذا كله من فضل السيد الأعظم حفظه الله تعالى)[2].

فإذا كان السلطان وأمير المؤمنين- عند النديم- هو (الخليفة الأعظم)، فإن (السيد الأعظم) هو جمال الدين الأفغاني! وهو يكتب ذلك في ظل الاحتلال الإنجليزي، يوم كان الانتساب للأفغاني من كبائر المحرمات!.

---

(1) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 897 - 905.

(2) المصدر السابق. العدد السادس والثلاثون ص 868، 869.

أما تقدير النديم للإمام محمد عبده– وهو أبرز تلاميذ الأفغاني، وأعظم مهندسي صرح التجديد الإسلامي في مدرسة الجامعة الإسلامية– وللكتاب والمفكرين الذين تكونت منهم مدرسة النهوض بالعربية والتجديد لأساليب التحرير بها– فإنه يتجلي من وصف النديم الذي يقول فيه: (.. أفضل الفضلاء، وإمام محراب الإنشاء، الأستاذ الشيخ محمد عبده، والجهابذة المتفننين، والكتبة المقتدرين: حسن بك حسني، وإبراهيم أفندي علي اللقاني، وإبراهيم أفندي الهلباوي، وحسن أفندي الشمسي، وأحمد أفندي سمير، ووفا أفندي محمد، وسعد أفندي زغلول، والطيب الذكر أديب أفندي إسحق، وغيرهم من الفضلاء الذين عرفتهم الأقلام بما أودعوها من أسرار الإنشاء وضروب التحرير..)[1].

وهي أوصاف شاهدة علي موقع فكر أعلام هذه المدرسة من مدارس الإحياء والتجديد الإسلامي في الانتماء الثقافي لعبد الله النديم.

ففي إطار (الجامعة الإسلامية)– والتي كثيرًا ما سميت (الجامعة الشرقية) و(الرابطة الشرقية).. كان الانتماء الثقافي للنديم.

وفي إطار هذا (الجامع الأكبر، والأول، والأشمل) رأي النديم تعدد وتكامل دوائر الانتماء الثقافي، إنْ على مستوى الفرد، أو الوطن، أو الجنس، أو الأمة، أو دولة الخلافة، التي كانت تجمع – يومئذ – العديد من دوائر الانتماء.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 938.

الجامعة الشرقية: انتماء حضاري في مواجهة الغرب

تحدد الثقافة التي تصوغ الوعي للإنسان– فردًا أو شعبًا أو أمة– حدود دائرة المحيط التي يمنحها الولاء ويخصها بالانتماء. فهناك ثقافات تقف بانتماء صاحبها عند حدود القبيلة، وأخرى لا تجعل صاحبها يتجاوز جغرافية الوطن، وثالثة تقصر الانتماء والولاء علي الجنس– بالمعني العرقي والسلالي– ومن الثقافات ما تجعل الدائرة الحضارية هي محيط الانتماء، ومنها ثقافات أممية طمحت إلى حصر الانتماء في طبقة من الطبقات الاجتماعية علي امتداد الإنسانية، أو إلغاء ما عدا الدائرة الإنسانية من دوائر الولاء والانتماء.

وفي كتابات عبد الله النديم تركيز واضح على أن دائرة انتمائه الثقافي هي الدائرة الشرقية– بالمعني الحضاري، الذي يجعل تميزها نابعًا من مقابلتها للحضارة الغربية، التي كانت تقتحم أبواب الشرق وحياة أهله في ذلك التاريخ. وفي هذه الكتابات أيضًا ما يؤكد على اشتمال هذه الدائرة الشرقية– كجامع حضاري أكبر– على العديد من دوائر الانتماء الفرعية التي لا تناقض بينها وبين هذا الانتماء إلى الدائرة الحضارية الشرقية.

والأمر الذي يؤكد أن (الشرق) في هذه الثقافة لم يكن معني جغرافيًّا فحسب، وإنما كان دائرة حضارية، هو استخدام هذا المصطلح- (الشرق)- في أدبيات التيار الفكري الذي انتمى إليه النديم كمرادف لمصطلح (الإسلام)، فالحضارة الشرقية والجامعة الشرقية، والرابطة الشرقية، والنهضة الشرقية، والشعوب الشرقية.. الخ.. الخ. كان المعني بها حضارة الإسلام وجامعته ورابطته ونهضة شعوبه، والتي تضم مللًا وأقوامًا هي جزء أصيل وعضوي من حضارة الإسلام- وإن ميزتها لغات أو معتقدات روحية لا تمثل بدائل لهذه الطوائف عن السمات الجامعة لحضارة الإسلام.

ولقد أشارت مجلة (العروة الوثقى)- لسان حال تيار (الجامعة الإسلامية)- وهي تتحدث عن منهج هذا التيار وأهدافه- إلى هذه الحقيقة- حقيقة استخدام مصطلح (الجامعة الشرقية) بمعنى (الجامعة الإسلامية)، عندما قالت: إنها (ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان، وتأتي في فصولها على أهم ما له أثر في أحوال الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا)، ثم أردفت قائلة: (ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا، ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم. فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا. وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون..)[1].

(1) جمال الدين الأفغاني (الأعمال الكاملة) جـ2 ص 344، 349، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة 1981م.

فالجامعة الشرقية هي جامعة الأغلبية المسلمة، التي تتعرض لغزو الحضارة الغربية. ووصفها بالإسلامية- الجامعة الإسلامية- لا يغاير وصفها بالشرقية بحال من الأحوال.

***

و(الجامعة الشرقية) - في ثقافة النديم - تضم أوطانًا عدة، وأجناسًا متعددة. لكن متاخمة أوطانها بعضها لبعض جعلتها (في حكم الوطن الواحد)، وغلبة التدين بالإسلام علي شعوبها قد أصبح رباطًا جامعًا كاد أن يذيب فواصل الأجناس وحواجزها، ومكانة العربية- التي هي لسان الدين والتراث- قد جعلتها رباطًا جامعًا تعلو مكانته على غيرها من اللغات الشرقية. وكانت الدولة العثمانية- الجامعة لأغلب أقاليم الشرق يومئذ- هي الأخرى عامل توحيد في هذه الجامعة الشرقية، وذلك فضلًا عن التناقض الحضاري والخطر السياسي اللذين مثلتهما الغزوة الغربية، مما جعل الجامعة الشرقية- في ثقافة النديم- (السد المحكم بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة علي الشرقيين)!.

(فالجامعة الشرقية) - إذاً - هي دائرة انتماء ثقافي وحضاري، أوسع من الدائرة العربية- القومية- وأعم من الرابطة العثمانية- الإدارية والسياسية. فهي دائرة حضارية، تقف في مواجهة الحضارة الغربية الواثبة- بالاستعمار- على الشرق والشرقية والشرقيين.

وقد كان لاستخدام النديم مصطلح (الشرقية)، أكثر من مصطلح (الإسلامية)، سببٌ موضوعيٌّ في الظرف السياسي الذي عاش فيه. فتهمة (التعصب الديني) كانت- كما سيأتي- في مقدمة الاتهامات الموجهة إلى الحركة الوطنية المصرية، وإلى النديم على وجه الخصوص، الأمر الذي جعل استخدام مصطلح (الجامعة الشرقية) أكثر شيوعًا في الأدبيات التي أبدعها.

فهو عندما يتحدث عن الروابط التي تربط المصريين بأهل المشرق- الشام- وبالعرب عمومًا، يخلص- بعد تعداد هذه الروابط- إلى أنهم جميعًا جزء من الجامعة الشرقية، فيقول: إن (بين المصريين والشاميين والعرب رابطة: اللغة والسلطة في الكل- (أي السلطة العثمانية الجامعة)- والدين في معظمهم، والجنس في أغلبهم، والمتاخمة التي تصير المجموع في حكم الوطن الواحد، وهم محتاجون إلى الجامعة الشرقية سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم)[1].

وهذه الجامعة الشرقية هي جامعة للأجناس والقوميات الإسلامية، من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى، (ولا برء لأهلها من الخبل والهُلاس إلا بمعرفة التركي حق العربي وفضله، واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته، واتفاق السوري مع المصري، وائتلاف الهندي باليمني، واتحاد العراقي بالفارسي، وارتباط التونسي بالمراكشي، وتوجيه نظر المجموع

(1) (الأستاذ) العدد الثامن عشر. ص 420.

وهمته إلى ما يسمَّى شرقًا لا ما يسمَّى جنسًا، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء)[1]!.

والنديم يتحدث عن دور الإسلام في تكوين (جنس مستعرب) غدا أوسع دائرة من (الجنس العربي) الذي كان قبل التدين بالإسلام، فالتدين بالإسلام قد أقام جوامع: (وحدة الدين) و(الوطن) و(الجامعة السياسية والإدارية)- الدولة- فامتزجت أجناس متعددة، بفعل هذه (الجوامع الإسلامية)؛ لتلد الأمة العربية على امتداد هذه الأفق الجديد والمديد. (فعند مجيء الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا وآسيا وبعض أوروبا، امتزج العرب بالفرس والشاميين والمصريين والترك والغوط وبعض الطليانيين والإفرنج والسودان والحبشة والهنديين والويغور وغيرهم، وألّف بين قلوبهم، فتوحدت كلمتهم، وصاهر بعضهم بعضًا بجامعة الدين، فنتج جنس يجنح إلى الأصول بعرق التوليد، ميَّال للجامعة بوحدة الدين والوطن والتابعية، وبمرور الزمان استقل هذا الجنس وصار مستعربًا يخالف أصوله، وقد غلبت عليه المخالطة الوطنية..)[2].

وكانت مدارس التبشير الكنسية الغربية، ومعها سلطات الاحتلال الاستعمارية، قد أخذت في الدعوة إلى (جامعة عربية) منبتة الصلة بالجامعة

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 413.

(2) المصدر السابق. العدد الثلاثون. ص 706، 707.

الإسلامية، وذلك لاستبعاد دائرة الانتماء الجامعة لشعوب الشرق– وهي دائرة الإسلام. وعندما يرسل أحد قراء مجلة (الأستاذ)– وهو مسيحي سوري يقيم في مدينة (بطرسبورج) إلى النديم على هذه الرسالة رافضًا ومصححًا، فيؤكد أن سياسة (الأستاذ) هي (حفظ الوحدة الشرقية.. لا الجامعة العربية وحدها) فيقول: (ولو قال هذا الفاضل: إننا ننادي بحفظ الوحدة الشرقية، من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم، على اختلاف الدين، لأصاب الغرض، فإننا ننادي بها، لا بالجامعة العربية وحدها)[1].. فالجامعة العربية ليست نهاية دائرة الانتماء، وإنما هي واحدة من دوائر الانتماء التي تضمها الجامعة الشرقية.

بل لقد وضع النديم دعاة فصل أجناس الجامعة الشرقية في معسكر (الأجراء للأجنبي)، حتى وإن ربطتهم بنا الأنساب والقرابات. (فإذا رأيت مصريًّا أو سوريًّا أو تركيًّا أو هنديًّا أو فارسيًّا أو مغربيًّا يوقع النفرة بينك وبين جنس شرقي، كأن تكون مصريًّا وترى شرقيًّا ينفرك من السوري أو التركي، فاعلم أنه أجير يشتغل لغيره. وأنه أجنبي وإن اتصل بك نسبًا وقرابة..)[2]..

وكانت الدولة العثمانية أعظم دول الشرق، والجامع الأكبر في إطار الجامعة الشرقية، والسياج الذي يتعلق به الشرقيون اتقاء للخطر

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون. ص 1004، 1005.

(2) المصدر السابق. العدد السادس عشر. ص 361، 362.

الاستعماري الزاحف على ديار الإسلام. ومن هنا كان تأييد تيار الجامعة الشرقية للدولة العثمانية، مع المناداة بإصلاح خللها، والسعي إلى تجديد طاقاتها؛ كان ذلك موقفًا ثابتًا لهذا التيار. والنديم يفصح عن سياسة مجلته، فيقول: (لقد نادى الأستاذ بالجامعة العثمانية والعصبية الشرقية[1].. وتخليد مجد الدولة العلية، التي هي مرجع الكلمة الإسلامية، وإن توزع المسلمون في أقطار متباعدة، ووجد بعضهم تحت سلطة دولة أخرى، فإنهم جميعًا يحترمون مقام الخلافة العظمى، ويعترفون أن السلطة الأجنبية عارض.. لا يحل رابطة عقدها توحيد الدين فيهم..)[2].

فدولة الخلافة العثمانية قد ظلت - حتى في لحظات الضعف التي مكنت الاستعمار من اقتطاع العديد من الأقاليم الإسلامية؛ ظلت (الحجة القانونية) ضد شرعية الاستعمار لهذه الأقاليم الإسلامية، والأمل الذي يتعلق به تيار الجامعة الإسلامية لجمع كلمة الشرق في مواجهة الاستعمار.

ولذلك اقترن تأييد تيار الجامعة الإسلامية للرابطة العثمانية وخلافتها - دائمًا وأبدًا - بالدعوة إلى إصلاح هذه الدولة وتجديد شبابها. وعلى درب الأفغاني ومحمد عبده- وكل أعلام هذا التيار- يسير النديم، الذي صاغ الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية شعرًا، توجه به إلى السلطان عبد

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 932.

(2) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 778، 779.

الحميد الثاني (1258 – 1336 هـ، 1842 – 1918م) قال فيه:

(نبرئ منك الذات عن ظلم أمة ولكن حواليك القليل به غدر
فَسُنَّ التساوي واحتكم واعف واصطبر تر الجثث الموتى يحركها النشر
فعندك من أهل السياسة سادة طبيعتهم حزم وحليتهم حذر
وقد تفعل الأقلام ما لم تصل له مدافع في الهيجاء يصحبها النصر
فَـرَبِّ الأهـالي يا إمام بحكمة وعلمهمُ علمًا يطيب به الشكر
وعَمِّر بـلادًا بانتشار معارف وإصلاح أرض لا يرى أهلها الضر
ولا تعط شبرًا للأجانب واحتفظ فما بعد ذا إلا التنازع والكر
وأوقـف مسير الالتزام لفتية تراهم رعايا والجميع لهم مكر
وبث رجال العلم في كل قرية لتعليم دين عنده يقف الظفر
ووحد ضروب الحكم بين رعية يؤلفها التوحيد ما بقي الدهر
وأبعد جميع الأدعـيـاء فإنهم يسيرون في طرق يُسَرّ بها الغير)[1]

فالرابطة العثمانية– التي دعا النديم إلى إصلاحها، وتجديد شبابها– هي دائرة من دوائر الانتماء السياسي والإداري في إطار الجامعة الحضارية

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والعشرون. ص 566.

الشرقية، التي ضمت وتضم أجناسًا وأوطانًا ربطت بينها حضارة الإسلام.

وكذلك الجامع الوطني، ورابطة الوحدة الوطنية.. هي واحدة من دوائر الانتماء الفرعية التي تضمها الجامعة الشرقية. ففي الوطن تتوطن الجامعة الوطنية التي قد تمايز بينها الأصول العرقية والجنسية، والملل الدينية، لكن تجمعها الرابطة الوطنية. ولقد دعا النديم إلى وطنية تجمع بين التعددية الدينية في الشعائر العبادية والشرائع الدينية، وبين وحدة الدولة والقضاء والقانون الإسلامي، الذي مثل ويمثل جامعًا وطنيًّا وحضاريًّا لسائر الملل في ديار الإسلام على مر التاريخ. (فحفظ الوحدة الوطنية في الأجناس القاطنة فيما يسمي وطنًا إنما يكون بتوحيد القضاء والمعاملة، وتمكين الطوائف من إجراء عاداتهم في مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم، كل بما هو حق في معتقده، جميل في عادته، بلا حجر ولا تضييق)[1].. فالقانون الشرعي الإسلامي هو بالنسبة إلي كل الذين استظلوا بالدولة الإسلامية- (من المسيحيين والموسويين والمجوس)- جامع وطني. (فعلى اختلاف مذاهبهم وأجناسهم، شملهم القانون الإسلامي العادل، وحكم بأنهم مثلنا في الحقوق الوطنية، لهم مالنا وعليهم ما علينا. فتوحدت الجامعة الوطنية بالقانون الشرعي، الذي يعد ناقضه عاصيًا لله- تعالى- ورسوله- ﷺ - ومع اتصال الحروب مع الدولة الإسلامية والدول المسيحية، لم يجن أحد على مستوطن أو وطني، ولو كان

(1) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 25.

من الأمة المحاربة، حفظًا للجامعة الوطنية التي قررت حرمتها النصوص الشرعية. فالقواعد الإسلامية تقضي على الآخذين بها بوجوب المحافظة على الوطني والمستوطن ومعاملته معاملة المثيل..)[1].

ولقد أفاض النديم في الحديث عن الوطنية. وهو قد برأ (الوطنية المصرية) من النزعات العرقية والجنسية، فالمصريون هم الذين استوطنوا مصر، بصرف النظر عن أصولهم العرقية.. (.. فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التي لا تنحل عقدتها ولا يبدد نظامها. ونعني بالمصريين كل وطني من العرب والترك والجركس. أما العرب فإنهم ساكَنُوا الأقباط من مبدأ الفتح الإسلامي إلى الآن فتوغلوا في الوطنية إلى أمد بعيد. وأما الترك، فإنهم وإن تأخروا عن العرب في الاستيطان ولكنهم هجروا بلادهم، وتعاقبوا الإقامة والدٌ عن والد حتى نسوا بلادهم، فلو عاد أحدهم إليها لكان أجنبيًّا فيها، لطول العهد. وأما الجركسي، فإن من ولد منهم في مصر فحكمه حكم العرب والترك، ومن ولد في غيرها فقد جاء صغيرًا دون سن التمييز في الغالب، وربما لا يعرف اسم بلده. فهم مصريون حقيقيون. والأقسام الثلاثة تجمعهم الرابطة الدينية قبل الجامعة الوطنية، فاعتبارنا الأجناس الثلاثة مع الأقباط مصريين؛ اعتبار صحيح حجته المشاهدة والعيان..)[2].

---

(1) المصدر السابق. العدد الرابع. ص 73، 74، 77.

(2) المصدر السابق. العدد الرابع. ص 78، 79.

وكما جمعت الوطنية المصرية كل الذين استوطنوا مصر، بصرف النظر عن أصولهم الجنسية، كذلك جمعت هذه الوطنية بين مسيحييها والأغلبية المسلمة فيها. (فمصر التي نحن فيها: بلاد إسلامية، مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلي كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والألفة وأصول المعاشرة التي قامت مقام اتحاد الجنسين. فهم إخوان الوطنية، فمصر مخصوصة بجامعة وطنية لم يسمع بمثلها في الأقطار، والأمة الإسلامية مع الطائفة القبطية كأهل بيت يتعاونون على المعاش، ويتعاورون الأعمال، ويتقاسمون النظر في شئون البلاد، ويتعاضدون على حفظ الوطن من طوارئ العدوان..)[1].

فالوحدة الجنسية جامعة للأكثرية المسلمة– التي تولدت من أصلاب المصريين الذين اعتنقوا الإسلام– مع القليل من الأقباط– الذين بقوا على مسيحيتهم. وهؤلاء المسيحيون الأقباط تجمعهم بكل الجماعة المسلمة في مصر– فضلًا عن الجنسية– رابطة الوطنية– النابعة من اتخاذ مصر وطنًا للجميع– ورابطة الألفة وأصول المعاشرة التي (قامت مقام الوحدة في الأصول الجنسية والعرقية).

(1) المصدر السابق. العدد الثلاثون. ص 711. والعدد الحادي والثلاثون. ص 749. والعدد الرابع. ص 75.

ولأن العبث بالوحدة الوطنية لمصر والمصريين، كان هدفًا من أهداف الاستعمار الإنجليزي وصحافة (الأجراء والعملاء)، التي نازلتها مجلة (الأستاذ)، وتصدى لها النديم، فلقد سعى الرجل إلى تحصين هذه الوحدة الوطنية المصرية من هذا العبث؛ لتظل متفردة (لم يسمع بمثلها في البلاد). ولتحقيق هذا المقصد الوطني النبيل دعا عبد الله النديم إلى إقامة (جمعية مصرية) متميزة عن الجمعيات الخيرية- الإسلامية والقبطية- تكون مهمتها الحفاظ على الوحدة الوطنية وتنمية أواصرها، وذلك (بالبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته).. فكتب يقول: (ولكننا نحب أن تزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية، وموضوعها: البحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، ولا تخرج في هذا كله عن الأدبيات، والمحافظة على ما بين المصريين وغيرهم من روابط المحبة. فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية، ونحن لا جمعية لنا تبحث في الوطنية، فإن الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية القبطية لا تعلق لكل منهما بما نحن في صدده، فإنهما جمعيتا إعانة وتربية أيتام. ولا يشك عاقل في أن تكوين جمعية من الفريقين يفيدهما فوائد جمة، ويحول بينهما وبين النزعات الأجنبية.. نريد جمعية تحفظ النظام الوطني بمساعيها الأدبية وما يترتب عليها من تطهير البواطن وتوحيد الكلمة)[1].

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والثلاثون. ص 750.

كتب النديم ذلك قبل نحو عقدين من النجاح الجزئي الذي أحرزه الاستعمار وعملاؤه في العبث بوحدة الوطنية المصرية. وهو العبث الذي تصدى له وطوق مخططاته عقلاء المسلمين والمسيحيين.. أولئك الذين دعا النديم إلي إقامة (جمعية مصرية) تضمهم (للبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، والحفاظ على النظام الوطني والحيلولة بين النزعات الأجنبية وبين فرقاء الجامعة الوطنية المصرية)!.. وهي دعوة لازالت تنتظر التحقيق والتطبيق؟!.

***

هكذا تبدت دوائر الانتماء في ثقافة النديم: جامعة شرقية، تميزها الحضارة الإسلامية تقوم بالنسبة لأجناس الشرق وملله أوطانه؛ (سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم)– بعبارة النديم.. وهي جامع أكبر يحتضن الجوامع الفرعية، التي تتآزر وتتساند في إطار هذا الجامع الكبير.

مقومات الانتماء.. والنهوض

يعترف النديم بدور (الغرب) في إيقاظ (الشرق)، لكن ليس بالمعنى الذي يتحدث عنه (الأجراء) من رغبة الغرب في إيقاظ الشرق، أو سعي الشرقيين- منذ الاحتكاك بالغرب- إلى تبني النموذج الغربي وتقليده، وإنما بمعنى إيقاظ النقيض لنقيضه، ودور العدو في التنبيه على الثغرات ومكامن الخطر، و(فضل) اللص في إيقاظ أصحاب البيت من سباتهم العميق!.

إيقاظ الغرب للشرق

فالغرب- بعد الهجمة الاستعمارية على الشرق- قد نهض بدور (المستفز) الذي استنفر الشرقيين للاستيقاظ!. (.. فلقد أثرت حركات أوروبا في معظم شيوخ هذا العصر وشبابه، فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم الديني والدنيوي، فقابلوا بين نهيها عن التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس في حياة الدني، والدعوة إليه ببث المرسلين وتكثير المعابد، فتولدت فيهم روح المماثلة، فأصبحوا يقولون وغدَوْا يفعلون..)[1]!.

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 419، 420.

لقد استفز الغرب الشرق، عندما قبح سيرنا الديني والدنيوي، وعندما دعانا إلى التخلي عن ديننا في الوقت الذي كان يهجم علينا بإرساليات التنصير وبناء الكنائس والمدارس التي تسعى لتحويل أبنائنا- مسلمين ونصارى- عن دينهم. فكان أن تحركت الهمم والغيرة والحمية، بسبب هذا الاستفزاز الغربي، و(تولدت روح المماثلة)- لا التبعية كما أراد الغرب- وتبلور لليقظة الشرقية تيار من الشيوخ والشباب (أصبحوا يقولون وغدوا يفعلون)!.

والنديم يُحدّث تيار اليقظة الشرقية عن مقومات الانتماء، وعن ثوابت النهوض التي لا يجوز التفريط فيها ولا التنازل عنها تقليدًا للأوروبيين.. وهي ست مقومات:

1 - حفظ المظهر والوجاهة.

2 - حفظ الثروة، من صناعة وتجارة.

3 - حفظ الوطنية، وحقوقها وواجبات أهلها.

4 - حفظ الجنسية، بعدم التقليد والاتباع لمحسنات الغير ومجاراته في أقواله وأفعاله.

5 - حفظ اللغة، التي هي أداة الحفاظ على الأخلاق وتحسين العادات والمألوفات.

6 - حفظ الدين، الذي يمثل حفظه الجامعة الحافظة لكل مقومات الانتماء، من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة.

وينبه النديم في حديثه عن هذه المقومات على الثوابت منها، والتي لا يجوز تغييرها حتى ولو اقتضى التغيير تحقيق منافع مادية ودنيوية. وهذه الثوابت هي الدين، والجنسية- القومية- والوطنية. وفي ذلك يقول: (ينبغي لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر في أصل عادته وفوائدها ومضارها، ثم في عادة الغير كذلك، فإن رأى حسن عادته، وأنها من لوازم حفظ المظهر، أو الثروة، أو الوطنية، أو الجنسية، أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها، وإن لم تحسن في عين الخليط، وإن رآها مضرة بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غيّر منها ما لا يفقده الاعتقاد الديني والشعور الجنسي والغيرة الوطنية.

فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سَلَّم ذاته لمن انتقل لعادته بلا حرب، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيانه ما هي عليه من العادات وما لها من الأخلاق).

فالتخلي عن مقومات الشخصية الحضارية، بتقليد الغير، هو (تسليم للذات بلا حرب)!.. كما يقول النديم.

وإذا كان النديم قد نبَّه على إمكان تغيير العادات (المضرة بالذات والوطن والهيئة الاجتماعية) فإنه قد اشترط أن لا يمس هذا التغيير ثوابت الهوية الحضارية: (الاعتقاد الديني، والشعور الجنسي (القومي)، والغيرة الوطنية).. كما نبه على محورية الدين في ثوابت هذه الهوية الحضارية؛ لأن الإنسان (إذا تهاون في أحوال دينه وفروعه هان عليه التقاعد عن نصرة

أهله، الجامعة لما تشتت من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة).. فكأنما الحفاظ على الدين هو الجامع الحافظ لكل مقومات الانتماء. وذلك- بعبارة النديم- (لسَرْي الجاذبية الدينية في الجسم سَرْي الماء في العود، حتى لنرى مقيمًا في الشرق يتألم بمصاب دينيّه في الغرب، وليس بينه وبينه جامعة وطن أو جنس أو لغة..).. وإذا فقد الإنسان جامعة الدين (بتقليد الغير فقد استخدم نفسه لأفكار الغير، حتى لو اضطره لمقاتلة أبيه وأخيه معه لفعل، لاستقباحه ما هم عليه واستحسانه ما عليه الغير)[1].

حدد النديم هذه المقومات للهوية الحضارية في أول عدد من أعداد مجلة (الأستاذ)، وظل يلح عليها في كل الأعداد..

فالدين الإسلامي (هو مرجع المجد وأصل الشرف..)[2]، و(هو أقوى دعائم العمران[3]. والسبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران، أيام كان الناس عاملين بأحكامه..)[4]، (وليس هناك حبل متين تُقاد به الأمم غير الدين..)[5].

---

(1) المصدر السابق. العدد الأول. ص 12 – 14.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 519.

(3) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 593.

(4) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 352.

(5) المصدر السابق. العدد السابع عشر. ص 394.

ولذلك، يتصدى النديم لمزاعم غلاة الأوروبيين الذين يتزعمون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، كاشفًا عن دوافع التعصب الديني التي تدفعهم إلى هذه المزاعم، وفاضحًا (الأجراء) و(العملاء)- من (الطائرين حول دهاة أوروبا)! الذين يبشرون بيننا بهذه المفتريات، فيقول: (.. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم، وأصحاب هذا القول كالببغاء. فقد قلدوا في هذا الوهم أوروبَّاويًّا في قوله الذي طارت به الصحف[1].. وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الإسلام، والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام، ومع ذلك فإن تقهقرهم أكثر من المسلمين، وحالهم أحط من المسلمين بدرجات..).

كما يفند النديم دعوى هذا الزعيم الأوروبي المتعصب، بأن الإسلام هو سبب تعصب المسلمين دينيًّا ضد الغربيين. (فدعوى هذا الأوروبي أن الإسلام سبب لحركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به(؟!)- مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى الآن، وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تفننها في آلات القتال والتدمير، مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة، لا يتحرك إلا دفاعًا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية، ولا يحركه إلا فتنة أوروبية، ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي والتعصب الديني.

(1) الإشارة إلى السياسي الاستعماري الإنجليزي وليم غلادستون (1809 - 1898م).

وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبي بدينه، كره أن يرى دينًا غيره، وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده، لتميل النفوس إلى رجل غيور على الدين.

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته، فلم يبطش بها بمواطنيه ولا مدها إلى معاهديه، بل ولا حرك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه. ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم، بل خيّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه، وهذه خصوصية له من بين الأديان..).

(فلم يكن الإسلام، ولا الأديان الشرقية السبب في التأخر، كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه..)[1].

وكما انتقد النديم دهاة أوروبا، المتعصبين لدينهم ضد الإسلام، انتقد كذلك الماديين الأوروبيين الذين يرون (أن الأديان هي سبب التخاذل الحاصل في العالم، ولا سبيل لمنعه إلا تركها جملة وإعدامها من الوجود)!.
ووجه حديثه إلى (الأجراء) (المقلدين) من أبناء أمتنا، الذين كانوا ينقلون هذه النظريات الأوروبية وينشرونها في بلادنا. (فهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا، الذين أفسدوا كثيرًا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام. مع أننا لو فرضنا عدم صحة الأديان، وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة،

(1) (الأستاذ). العدد الخامس عشر. ص 337، 338، 352.

ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية، لكان من الواجب احترامها واعتبارها، فإن تأثير وعدها ووعيدها في النفوس لا يبلغه قانون، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله.. وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني. والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته. ولو علم أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال، فإن أُرغم قاتل مكرها. ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمرات الموت، فإنه إذا علم أنه يقدم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراده، ولا ثواب ولا نعيم، فإنه لا يبيع حياته بلذة غيره)[1].

وهكذا، يقف النديم مدافعًا عن الإسلام، وعن مطلق الدين والتدين أمام الفكر الأوروبي، الذي تنشره في بلادنا صحافة (الأجراء) و(المقلدين لدهاة أوروبا) و(الطائرين حول هؤلاء الدهاة)، سواء أكان هذا الفكر الأوروبي تعصبًا نصرانيًّا ضد الإسلام، أم مادية رافضة لمطلق الدين.

والنديم الذي عاش في عصر (المسألة الشرقية)، والصراع الأوروبي مع الدولة العثمانية، قد أبصر مكانة الإسلام في هذا الصراع. فعداء أوروبا لهذه الدولة العثمانية كان منطلقه العداء للإسلام، الذي يحول بين الغرب وبين تنصير المسلمين، والذي يحمي الشرق من الاستسلام لهيمنة الغرب ونهبه واستغلاله. (ولو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 339، 340.

الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة. ولكن المغايرة الدينية وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل).

ويوجه النديم قوارص الكلمات إلى تيار التقليد لأوروبا، الذي احترفت صحافته ذم الدولة العثمانية، فيقول: (وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا وأحسنها تبصرًا وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا..)[1]!.

فالنديم الذي سبق وأوردنا له الشواهد علي دعوته لإصلاح الدولة العثمانية، وتجديد شباب إدارتها، هو الذي يسفه هنا دعاوى (المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا)! ضد الدولة العثمانية؛ لأنها دعاوى معادية لهذه الدولة، لحساب الرصيد الاستعماري الأوروبي، وليست دعوات للإصلاح تستهدف تقوية السياج العثماني حماية للشرق وحضارته في الصراع مع الأوروبيين- كما كان حال وموقف النديم وتيار الجامعة الإسلامية إزاء العثمانية والعثمانيين.

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 513.

هذا عن الدين- والدين الإسلامي على وجه الخصوص- كثابت من ثوابت الهوية الحضارية الشرقية، فهو (أقوى دعائم العمران، والسبب الوحيد في المدنية، ومرجع المجد وأصل الشرف؛ الذي تسري جاذبيته في الجسم سَرْي الماء في العود).

* وذات المكانة التي أحلّها النديم للدين في ثوابت الهوية الحضارية، وأحلّها للغة العربية، (فاللسان العربي- (عنده) هو لسان الدين، وترجمان الوطن. واللغة العربية مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد، وإذا فقدت الأمة لغتها فقد فقدت الدين والتاريخ الوطني..)[1].

وإذا كان النديم قد رأى في (الدين) و(الجنسية) و(الوطنية) ثوابت الهوية الحضارية التي لا يجوز المساس بها- حتى ولو اقتضت (المنافع) هذا المساس- فلقد رأى اللغة العربية ثابتًا من هذه الثوابت؛ لأنها (لسان الدين) و(ترجمان الوطن) و(عنوان الجامع للجنسية الحافظ له، فالمحافظة على اللغة محافظة على الجنسية، بل وعلى الملك وما يشتمل عليه؛ ولهذا لا تميل أي دولة لنقل التعاليم من لغتها إلى لغة أخرى مهما مست الحاجة إليها، ولا تعطي شهادة لتلميذ أدى الامتحان في جميع العلوم بغير لغته مهما كان تمكنه من اللغة الأجنبية عن لغته، وبهذه الوسيلة حفظت مقاصد الدول، وامتازت كل أمة

(1) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 593. والعدد الثامن. ص 179.

بخصائصها التي حفظتها لها لغتها..)[1].. فاللغة هي الوعاء الحافظ للخصائص التي تمتاز بها الأمة عن الأمم الأخرى. وهي في حال لغتنا العربية، تزيد؛ لأنها هي لسان الإسلام، الجامع الأكبر لكل مقومات الانتماء الحضاري.

ولأن هذه هي مكانة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، فلقد تكالبت عليها التحديات. وكان النديم واحدًا من الذين تصدوا لهذه التحديات. (فلغتنا الشريفة، التي يتكلم بها الآن– (1310 هـ – 1892م) – أكثر من مائة مليون من الناس، يسعى كثير من الناس المحبين للغاتهم أو لذاتهم– في إماتة هذه اللغة، وتحويل هذه الألسنة عن التكلم بها إلى التكلم بغيرها؛ لنفقد بفقدها المجد والشرف معًا..)[2].

وفي مقدمة التحديات اللغوية للعربية، التي تصدى لها قلم النديم:

1 – تحدي اللغة التركية في الولايات العربية، التي حكمها العثمانيون.

2 – تحدي اللغات الأوروبية الزاحفة علي الشرق العربي، في ركاب الاستعمار ومدارس التنصير..

3 – تحدي اللغة العامية، التي يتوسل بها الاستعمار وعملاؤه من الأجراء سبيلًا لإزاحة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، تمهيدًا لإزاحة الإسلام والقرآن والتراث؛ لتفقد الأمة عوامل استعصائها على التبعية والذوبان في حضارة الغزاة.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع. ص 204.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 169.

ينبه النديم علي دور (تتريك) أجهزة الإدارة بالولايات العربية العثمانية، في تقهقر اللغة العربية. فلقد (كان استعمال اللغة التركية في المخابرات الرسمية من أسباب تقهقر اللغة العربية. ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة التي حكمت فيها الدولة العثمانية البلاد العربية..)[1].

ويشيد بتجربة مصر الحديثة، التي تعربت إدارتها.. وبدور الأزهر، ومكانة القرآن، في استعادة العربية لعافيتها في هذه التجربة المصرية.. (.. فلما تركت الأقلام التركية، وصارت المحررات الرسمية كلها عربية، تقدمت اللغة تقدمًا غريبًا، ونبغ ألوف من المتعلمين في الأزهر والمدارس.. وكان لتقدم أهل الأزهر على أهل المدارس في الإنشاء سبب واحد هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم في الصغر، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة وقاموس الفصاحة وأبدع أسلوب إنشائي..)[2].

ولذلك؛ فهو يدعو إلى تعريب إدارات الدولة العثمانية في الولايات العربية، وذلك (بتعليم أفراد من أبناء الترك والكرد والجركس باللغة العربية، ليكونوا مؤهلين لولاية الأقضية والولايات العربية في الشام والعراق واليمن والحجاز.. فحياة اللغة العربية في بني الترك خصوصًا وفي بني العرب عمومًا حياة للدولة من طريق معنوي)[3].

(1) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 176.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 177، 178.

(3) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 183.

أما تحدي اللغات الأوروبية للغتنا العربية، فلقد نبه النديم على مسالكه المتعددة، ومنها تهجين العربية بالكلمات الأجنبية. وجعل هذه اللغات الأجنبية هي لغة التعليم في بلادنا. والدونية التي تجعلنا نتعلم لغات الأجانب لنتخاطب وإياهم بها في بلادنا، بدلًا من أن نجعلهم يتعلمون لغتنا كضرورة من ضرورات تعاملهم معنا في أوطاننا، مع جعل تعلمنا للغات الأجنبية سبيلًا لترجمة ما لدى الآخرين من علوم نحتاج إليها.

يعرض النديم لهذه التحديات اللغوية، فيقول: (.. ولا يُرجع باللغة القهقرى إلا أمران):

الأول: كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها في مخاطباتنا الكتابية والخطابية.

والثاني: نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية، فمتى حصل هذا في أية أمة فقد فقدت لغتها وتبعها الدين والتاريخ الوطني، فإن اللغة مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد. فيجب توحيد التعليم، لئلا يطلع الأبناء لا هم مصريون ولا أجانب، ويكونون من هذا الامتزاج العجيب لغة جديدة لا قاعدة لها ولا ضابط، ويعز على الآتي بعدنا أن يعرف دينه أو كتابه لاحتياجه إلى مترجم يترجم له العربية إذ ذاك..)[1]!.

---

(1) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 178، 179، 182، 183.

أما تصدي النديم لتحدي العامية للفصحى- والتي يسميها اللغة الصحيحة- فلقد يبدو غريبًا على الذين اشتهر لديهم النديم (كأُدباتي)، ناظم بالعامية، تفوّق في هذا الفن على أساطينه ومحترفيه. ذلك أن الرجل كان يتوسل- في الصحف التي يصدرها- بفصول مكتوبة بالعامية- اللغة الدارجة- إلى الذين لا يقدرون على مطالعة الفصحى أو فهمها، ولا يرغبون في القراءة بها، وذلك ارتقاء بهم- بواسطة السماع- نحو القراءة بالفصحى وفهمها، وبلوغها إلى حيث نستغني عن العامية كل الاستغناء. وهو يفصح عن منهجه هذا، وعن مقصده، وهو يتحدث عن موقف مجلته (الأستاذ) من هذا الأمر، فيقول: (إنها تشتمل على فصل قصير باللغة الدارجة، لنحول به العامي الجاهل من كراهة سماع الكتب إلى محبتها، فينجرَّ به الأمر إلى سماع الكلام الصحيح، وهناك لا يلزم كتابة غير الصحيح. فاللغة الصحيحة هي الحية؛ لاستعمالها بين الخاص والعام من عقلاء الأمة، واللغة الدارجة هي الميتة؛ لعدم استعمالها في غير الضرورات التي يقتضيها الحيوان بلا لغة)[1]!.

ولأن هذا هو موقف النديم، مع الفصحى- الصحيحة.. الحية- لا مع العامية- الدارجة.. الميتة، كان صراعه ضد دعاة إحلال العامية محل الفصحى موقفًا ثابتًا على مر حياته الفكرية والصحفية.

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 468، 471.

ففي يونيو سنة 1881م كتب في جريدته (التنكيت والتبكيت) مقالًا اتخذ له عنوانًا ذا دلالة عميقة في الدفاع عن العربية، والتنبيه على مكانتها في ثوابت الهوية الحضارية- وهو عنوان: (إضاعة اللغة تسليم للذات)!. ويومئذ دارت معركة فكرية بين حراس العربية- النديم، ومعه أحمد أفندي سمير وإبراهيم أفندي الهلباوي- وبين واحد من خريجي مدارس التنصير والتغريب هو أمين شميل (1243 - 1315 هـ، 1828 - 1897م)- الذي استوطن مصر مع شقيقه شبلي شميل (1276-1335هـ، 1860-1917) منخرطين في تيار التبشير بالحضارة الغربية بديلًا للحضارة الإسلامية، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية، كالمقتطف.. والمقطم.. وجريدة الحقوق- التي أصدرها أمين شميل.

وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي- ومرحلة إصدار النديم لمجلة (الأستاذ)- تجدد جهاده دفاعًا عن الفصحى، الصحيحة الحية، ضد دعاة العامية، الدارجة الميتة، بمناسبة تزعم المهندس الإنجليزي المستر (وليم ويلكوكس) (1852 - 1932) الدعوة إلى استبدال المصريين العامية بالفصحى. وعن هذه المعارك اللغوية، يحدثنا النديم فيقول: (لقد سبق وكتبنا في العدد الثاني في جريدة (التنكيت والتبكيت) فصلًا تحت عنوان: (إضاعة اللغة تسليم للذات)، فعارضنا فيه الفاضل الكاتب أمين أفندي شميل برسالة تبادل الجدال معه بسببها أحمد أفندي سمير وإبراهيم

أفندي الهلباوي. والآن رأينا دعوي المستر وليم ويلكوكس التي مؤداها أن المصريين لا توجد فيهم قوة الاختراع، ولا مانع لهم إلا اللغة الصحيحة، وأنه إذا تحولت الأفكار وحتّمت استعمال اللغة الدارجة في المخاطبات والتآليف العلمية والتدريس أمكن المصريين أن يخترعوا. فرجعنا إلى رسالة أمين أفندي شميل، وقلنا: ما أشبه الليلة بالبارحة!..).

ثم كشف النديم عن المقاصد الحقيقية من وراء الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى- لغة القرآن الكريم. إنها قطع صلة الأمة بالقرآن مصدر عقيدتها وشريعتها، وصبغة حضارتها- (فالعربية بها نزل القرآن الشريف، الذي هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين، فهو الداعي لحياة اللغة العربية الصحيحة، وهو المقصود لكل محارب للغة، ساعٍ في إماتتها.. وماذا نصنع بكتبنا، التي تجل عن الحصر، إذا تكلمنا باللغة الميتة العامية؟ أنحرقها؟ أم نترجمها بالكلام الفارغ؟ ولماذا لم تكتب الإنكليز كتبهم العلمية وجرائدهم باللغة الدارجة عندهم، تعميمًا للفائدة التي تريد أن تعممها في مصر؟! وهل ترى أن المصريين إذا قرؤوا القرآن باللغة العامية، عند استعمالها ونسيان غيرها، أيرضى عنهم المسلمون؟ أم يعدونهم منهم؟! وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين؟!..)[1].

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 468، 469، 476.

فالدعوة إلي العامية: عداءٌ للقرآن، وسلخ للأمة عن دينها، وقطيعة معرفية مع تراثها وتاريخها وهويتها الحضارية، وعزل لمصر عن الجسد الإسلامي الكبير!.

ومقصد آخر من مقاصد الداعين إلى العامية- من الإنجليز والأجراء الساعين إلى إحلال الحضارة الغربية محل الحضارة الإسلامية- هو تأبيد التبعية للاستعمار في بلادنا. ذلك أن تميزنا اللغوي هو دافع من دوافع حركتنا للتحرر من الاستعمار. (وكم من أمم خضعت لأمم أعظم منها قوة وأشد منها بطشًا، وبقيت محافظة على لغتها، فبعثتها إلى الاستقلال وعزة الملك، كالترك والفرس واليونان وأسبانيا ورومانيا والبرتغال والبلغار. ولو تركوا لغتهم، واستعملوا اللغة الحاكمة؛ لماتت وتجنسوا بالجنسية المتغلبة..)[1].

وإذا كانت هذه الأمم قد اعتصمت بلغتها، كجامع جنسي (قومي)، فإن العربية بالنسبة لأمتنا هي أكبر وأعظم من الجامع الجنسي والقومي. فالتهاون فيها (ينسينا القرآن، الذي لو ترجم بأفصح لغة أجنبية لجاء عبارة عن حكاية يقتدر علي إنشائها أي كاتب، ولضاعت بلاغته العربية. فبقاء العربية الفصحى هو بقاء الدين والجنس معًا. وحاجتنا الدينية إلى لغتنا أشد من حاجة الأمم غير المسلمة إلى لغاتها، فإن الإنجيل لما ترجم تناولوه كما تناولوا الأصل، والقرآن لو ترجم بلغة أخرى لعجزت الترجمة عن أداء مفهومه ومنطوقه..)[2].

***

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 469.

(2) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 470، 471.

وفي التصدي لمزاعم عجز العربية عن أن تكون لغة العلم الحديث، لم يقف النديم، في دحض هذه المزاعم، عند الاستشهاد بالتاريخ، الذي نهضت فيه بلغة العلم القديم، وإنما استشهد أيضًا بتجربة مصر الحديثة، على عهد محمد علي باشا (1184 – 1265 هـ، 1770 – 1849م) والحقبة السابقة على فرض اللغات الأجنبية على مدارس مصر– (1892م) بقوة الاحتلال. (فهذه المدارس المصرية، قرئت فيها العلوم القديمة والحديثة، الأصلية والمترجمة، ولم يفتها شيء مما كتب في أوروبا، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنكليزية في بعض العلوم إلا في هذه السنة– (سنة 1892م). وما هو الموجب لتعليم مثل التاريخ والطب والهندسة والجغرافية باللغات الأجنبية، والمتعلم سيُسْتَخْدَم بين من لا يعرفون كلمة أجنبية، وهم فلاحو مصر وعوامها، والكتب العربية في هذه الفنون توجد أحمالًا في المخازن، فأي ضرورة تلجئنا لتركها وشراء غيرها بلغة أخرى؟!. إن نقل التعليم من لغة البلاد إلى لغة أجنبية هو نقل للتلميذ من الجنسية والدين معًا)!.

ثم تنبأ النديم باندحار كل هذه الدعوات، التي تمثل تحديات دينية وقومية للعربية، فقال: (إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع، بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذانًا سامعة..)[1]!.

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 473 – 475.

ولم يكن النديم داعية للجهل باللغات الأجنبية. وإنما كان داعية لإتقان العربية كي نستطيع أن ننتفع بما نتعلم من لغات أجنبية في الترجمة التي تطلعنا على ما نحتاج مما لدى الآخرين (فالغرض إنما هو تعريب اللغة الأجنبية بعبارة عربية، وعكسه- (أي الترجمة من العربية إلى غيرها)- حتى تجتلب المنافع ونتبادل الفكر، ولا ريب أن العاجز عن اللغة العربية لا يقدر علي ذلك، اللهم إلا بعبارة منسوخة المعنى خالية من الثمرة..)[1]. (ولو فرضنا وتعلمنا اللغات الأجنبية، وتكلمنا بها عند الحاجة إليها، لوجب علينا أن نحافظ على لغتنا العربية ونستعملها في معاملاتنا الخاصة بنا وبين أبنائنا وأهلينا وفي كتب ديننا وعلومنا الأصلية والفرعية، لبقاء الدين والجنس ببقائها..)[2].

***

ولم يقف جهاد النديم في سبيل العربية عند التصدي للتحديات المهددة لوجودها- التركية.. والعامية.. واللغات الأجنبية الغربية- وإنما مد آفاق هذا الجهاد ليشمل الدعوة إلى النهوض بلغة القرآن الكريم؛ وذلك لتفي باحتياجات النهضة الحديثة، وتكون قادرة على منازلة التحديات اللغوية، والانتصار عليها.

(1) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 594.

(2) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 471.

فهو يحتفي بتأسيس (مجتمع اللغة العربية بمصر) (1310 هـ، 1893م)- برئاسة السيد توفيق البكري-(1287-1351 هـ، 1870-1932م) الذي سبق ودعا إلى إنشائه المرحوم عبد الله باشا فكري (1250 - 1306 هـ، 1834-1889م) ويشير إلى سابق دعوته هو إلى إنشائه (1298هـ-1881م) بمقاله الذي نشره في (التنكيت والتبكيت) تحت عنوان (إضاعة اللغة تسليم للذات)[1].

ويسهم النديم- إسهام العالم الخبير- بتقديم المقترحات الفنية والتنظيمية إلى (مجتمع اللغة العربية) الوليد.. فهو يقترح له تنظيمًا شاملًا لمختلف التخصصات، بحيث يكون (المجتمع - (المجمع)- عامًّا في كل ما يتعلق بالفنون العربية.. قسم مختص بالمواد اللغوية، وقسم لعلوم الآليات، وقسم للتاريخ وتقويم البلدان، وقسم للترجمة، وقسم للرياضيات) كما يقترح النديم على (مجلس النظار)- (مجلس الوزراء)- اعتماد (مجتمع اللغة العربية) كجمعية لغوية (وإلزام مدرسي اللغة العربية في المدارس وغيرها بالنقل عنها، ثم تتناقل الجرائد المحلية كلماتها وتكررها بالمناسبات لتكون- (وسائل الإعلام)- في مقام مدرسين يعلمون القراء من فوائدها، وبهذه الطريقة تتداول الكلمات المقابلة للكلمات الأجنبية، فتزاحمها العربية مزاحمة تضييق نطاقها..).

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والعشرون. ص 673.

كما يقترح النديم على الحكومة اعتماد هذا (المجتمع اللغوي) مرجعية فكرية للدولة (تحيل عليه النظر في المؤلفات الجديدة ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع ما يضر بالأخلاق والدين والسياسة).

ويتوجه إلى (المجتمع اللغوي) برجاء وطني (وهو أن يبعد عن الدخول في السياسات. وأن يحفظ الوصلة بينه وبين الأزهر المنير، بعدم تعرضه لشيء مما هو من خصائص الجامع وسماحة شيخه، وبهذا يمكنه أن يستعين بأشياخه في كثير من مواضيعه العلمية، فإن أساسه مبني على العلوم الأزهرية، وأعضاؤه يكون معظمهم من الأزهريين الذين يقدرون على التصرف في العبارات بالاستنباط أو القياس)[1].

هكذا دافع النديم عن العربية، لغة القرآن، وجامعة الجنس، وثابت هوية الأمة الحضارية، وامتد دفاعه عنها عبر مسيرته الفكرية. منذ أن رفع- في صحيفته الأولى- شعار (إضاعة اللغة تسليم للذات). وحتى المقالات الإضافية التي دافع بها عنها في مجلة (الأستاذ).

* ومع (الدين) و(اللغة)- في جوامع الانتماء الثقافي والحضاري- يأتي جامع (الوطنية)، الذي يحفظ استقلال الأمة واستقلال الوطن عن الانقياد للغير والتبعية للآخرين، ذلك (أن جهل الوطنية وحقوقها وواجبات أهلها يسهل على الجاهل الانقياد للغير وتسليمه الوطن، غرورًا بالظاهر،

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والعشرون. ص 673.

وجهلًا بالعواقب، إذ لا يعلم من الوطنية إلا أنه ساكن بهذه الأرض، ينتفع بالسكنى فيها انتفاع الوحش بالأودية والمغارات، فلا يعرف تاريخ الحياة الوطنية ولا الأمم المؤسسة لها ولا شرف استقلال الاستيطان ولا مجد وقاية المأوى، وبهذا يكون بين يدي الغير بمنزلة أجنبي يستعمله في مهنته، وليس له إلا أجر أجير ومنزلة نزيل..).

فالوطنية ليست سُكْنَى في بقعة جغرافية، وإنما هي جامعة لشرف استقلال الوطن، ومجد الأمة، حتى لا تكون هذه الأمة- إذا فقدت هذا الجامع- في أرضها بمنزلة الغريب والأجير والنزيل!.

* وكذلك الحال- في عوامل وجوامع الانتماء عند النديم- مع جامع (الجنسية)؛ لأن التفريط في الجنسية، والتجنس بالجنسيات الأجنبية، يجعل المنسلخ من جنسيته متخذًا جنسيته عدوًّا!. (فإذا تجنس المرء بغير جنسيته، بالتقليد واتباع محسنات الغير ومجاراته في أقواله وأفعاله، وقعت جنسيته عنده موقع العدو، وعدم فوائدها التي يأتي بها اجتماع أفراد الجنس)[1].

فالجنسية جامع من جوامع استقلال الذات الوطنية والحضارية، تعصم الذات من (التقليد للغير واتباع محسناته، ومجاراته في أقواله وأفعاله)!.

* وإذا كنا نتحدث اليوم عن (الاقتصاد المستقل) و(التنمية المستقلة) كشرط من شروط (المشروع الحضاري المتميز) فلقد كان النديم علمًا من أعلام

(1) المصدر السابق. العدد الأول. ص 13.

تيار الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية، الذي ارتاد الدعوة إلى هذا الاستقلال الاقتصادي، في مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية منذ بدايات المواجهة مع النهب الاقتصادي الغربي لثروات عالم الإسلام. والكاتب الأمريكي (لوثروب ستودارد)- في كتابه (حاضر العالم الإسلامي)- يقول عن تيار الجامعة الإسلامية- الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني: إن (غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية.. هي: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها. وهي نفض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا، هي تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضَّة علي موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك، وسائر العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة علي الغرب)![1].

فنحن أمام برنامج للاستقلال الاقتصادي، يمثل قسمة من قسمات استقلالية الهوية الحضارية للأمة، وسمة من سمات مشروع نهضتها المستقلة. وفي إطاره نقرأ ما كتبه النديم عن جناية التقليد للغرب والاستهلاك لمصنوعاته علي اقتصاد الأمة وثروتها. (فلما حصل الاختلاط، وامتدت

---

(1) (حاضر العالم الإسلامي) مجلد 1 ص 326. ترجمة عجاج نويهض - تعليق: شكيب أرسلان. طبعة بيروت سنة 1971م.

التجارة، واتسع نطاق الزراعة، وساكن الأجنبي الوطني، وتبادل الفريقان الزيارة، قبّح الغربي اقتصاد الشرقي، وعدّه بقاءً على الهمجية والتوحش، وحسّن له التوسع في المآكل والمشارب وآنيتها. وما قصد بذلك إلا تحويل ما بيده من النقود إلى بلاده، واتخاذه أجيرًا[1]. فبعد عقد المعاهدات التجارية مع دول أوروبا، جيء بمصنوعاتها إلي مصر، فهجم عليها الأهالي، وأقبلوا على البضائع الأجنبية وتركوا صنائعهم وصُنّاعهم. ولا زال الأهالي يميتون الصنائع شيئًا فشيئًا حتى صارت الملابس والفرش والأواني، وكل ما يلزم الإنسان من ضروريات الأثاث من صناعة الأجانب، وبهذا ماتت الصناعة موتًا[2]..) مع أنه (يوجد بالمحلة الكبرى صناع يصنعون الأقمشة اللطيفة المحتاج إليها لباسًا وأثاثًا مع إتقان الصنع وجودة القماش وحسن المظهر، لكن الناس مغرمون بمصنوع الأجنبي الذي لا يساوي شيئًا في جانب مصنوع البلاد[3]. لقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد الشرقي. ولما لم تكفهم وارداتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة اقترضوا ورهنوا الأملاك والأطيان!..)[4].

---

(1) (الأستاذ) العدد الثالث. ص 53.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 186، 187.

(3) المصدر السابق. العدد السابع والثلاثون. ص 894.

(4) المصدر السابق. العدد الثالث. ص 55.

إنها التبعية الاقتصادية التي جلبتها نزعة التقليد والمحاكاة للغرب. وعلاجها- في رأي النديم- هو استقلال الهوية، الذي يجعلنا نميز في ما لدي الغرب بين (النافع- الضروري) وبين ما لا يوافق (أخلاقنا وعاداتنا). (فلو أخذنا من محسنات الغرب ما لابد منه، واقتصرنا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقي..)[1].

هكذا تكلم النديم عند الاستقلال الاقتصادي، سبيلًا للحفاظ على الثروة، وطريقًا لتنمية مكونات الاستقلال الحضاري أمام مخاطر وإغراءات التقليد والمحاكاة، وكأنه- رحمه الله- يتكلم عن مشكلاتنا، ساعة كتابة هذه السطور!.

***

* والنديم، الذي كانت حياته (صيحة في سبيل الحرية)- للفرد، والوطن، والأمة- والذي صارع قوة الاستبداد، وهرب بحريته من حبل المشنقة، وعانى من النفي والتغريب عن وطنه- لم يخلط- هذا العاشق للحرية- بين مفهومها الإسلامي، الذي ينتمي إليه، ويزكيه، ويدعو لإشاعته، وإقامة نظمه ومؤسساته، وبين مفهومها الغربي، القائم على (الإباحة.. وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة)، الذي رفضه، معتبرًا إياه (بهيمية) إن ساغت في أوروبا، فهي غير سائغة في عالم الإسلام، الذي ضبطت شريعته حقوق الناس بحقوق الله، وحريات الناس بالأخلاق والعادات والقواعد الدينية.

(1) المصدر السابق. العدد الثالث. ص 56.

وعن هذا الملمح من ملامح منظومة الانتماء الثقافي للنديم كتب الرجل فقال: (.. ولئن قيل: إن الحرية تقضي بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلي البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغًا في أوروبا فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها..)[1].

وعندما يعرض النديم لتطبيقات المفهوم الغربي للحرية- مفهوم الإباحة وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة- على (حرية المرأة)، وما أثمرته تطبيقات هذا المفهوم من إباحة الزنا بالتراضي والاختيار، دون مراعاة للضوابط الشرعية. يرى النديم في ذلك (حرية مدنية ينفر منها البهيم، وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم، فقد اتفق المسلمون والنصارى واليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن، وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه، فإطلاق الحرية في هذا الباب مذمومة. وما سمعنا بمثل هذا في الجاهلية الأولى..)[2]!.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع عشر. ص 439.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن والعشرون. ص 912.

ولا يحسبن أحد أن موقف النديم هذا كان نابعًا من عداء للمرأة، فنساء مصر- قبل سنوات طويلة من حديث قاسم أمين (1280 - 1326 هـ، 1863 - 1908م) عن تحريرهن- عندما تطلعن إلى إصدار مجلة نسائية، قد وقع اختيارهن على عبد الله النديم. وعن هذا المشروع- لإصدار جريدة (المربي) الأسبوعية- للمرأة والطفولة- كتب النديم يقول: (تقدمت لنا كتابة من ثلاث وعشرين سيدة يطلبن إنشاء جريدة تختص بهن. وهذا الذي حملني على إجابة طلبهن في نشر جريدة أسبوعية تسمى (المربي). وسنشرك معنا بعض الأفاضل الأطباء لتحرير ما يختص بالأمراض والحوامل. وإنا نشكر السيدات اللاتي اقترحن هذا الاقتراح البدعي، كما نثني عليهن في اختيار هذا الضعيف- (النديم)- لهذه الخدمة، وقد عللن ذلك بقولهن: (إنه لا يقدر على تحرير جريدة بلساننا ولسان الأطفال إلا مثلك، فلذلك رجوناك هذا الرجاء).

ثم يستطرد النديم، فيدعو النساء إلى الإسهام في تحرير هذه المجلة بالأفكار والمقالات، فيقول: (وإني كذلك، أرجوهن أن يبعثن لي أفكارهن في المواضيع التي تطرأ عليهن. نشر الفضائل سيدات العصر، كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن. ولهن أن لا نصرح باسم واحدة منهن إلا من شاءت ذلك. والله تعالى يوفقنا لما فيه رضاه ونفع الأمة ذكرانًا وإناثًا)[1].

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 804، 805.

وفي هذا الذي كتبه النديم بيان على أن النموذج الذي كان في فكره، لهذه النهضة النسائية، لم يكن النموذج الغربي- الذي رأى في حريته وتحريره (حرية مدنية ينفر منها البهيم)!- وإنما كان نموذج الحرية والتحرير للمرأة الشرقية هو النموذج الشرقي الإسلامي في عصور ازدهار حضارتنا الإسلامية. فلقد كان النديم يريد- وفق عبارته- (نشرًا لفضائل سيدات العصر كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن..).

ونقد النديم للمفاهيم والمضامين والتطبيقات الغربية في (الحرية الشخصية) وفي (حرية المرأة) لم يمنعه من طلب الاستفادة من الجوانب الإيجابية لمفاهيم الغرب وتطبيقاته للحرية في ميادين أخرى. فلقد دعا إلى النظر في تجارب الغرب في (التعددية الحزبية)، مع ضرورة قصر عضوية هذه الأحزاب على (الوطنيين)، وتطهيرها من دعاة التقليد والمحاكاة للأفكار الغربية (الطائرين خلف المحسنات الأوروبية)!. فهذه (الأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين، الذين يخافون أن تطأ خيل الغرباء قبور أجدادهم الحافظة لعظام المجد الوطني والشرف الملكي. فعلينا أن نبحث في طرق أحزاب أوروبا وروابطهم، وكيفية سيرهم، وموجب استمرارهم على ما هم فيه. ولتكن لكل حزب جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله، بحيث تلزم مشربًا لا تتحول عنه، ولا تتلون بتلون المطامع، ولا

يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها، فإن الجرائد مدارس الأفكار، تحافظ على مبادئ حزبها، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة. وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد، وأخذت كل ما يقال بالقبول، من غير بحث في مصدره وما تحته من الدسائس، تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر. ولتكن مطهرة من ذوي الأفكار الفاسدة، محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية)![1].

فهو في الحريات الفردية والشخصية، يريد مفهومًا متميزًا عن المفهوم الغربي، مضبوطًا بحدود الله وحقوقه وأخلاقيات الأمة وعوائدها.. وهو في تكوين الأحزاب، وفي صحافتها، يريد ضبط آفاقها بالمصالح الوطنية، وبمميزات الانتماء الثقافي والخصوصية الحضارية، وذلك حتى لا توقعنا هذه الحريات (في شراك أوروبا.. والأفكار الفاسدة للطائرين خلف المحسنات الأوروبية)!.

ومن موقع العشاق للحرية، انتقد النديم نظم التغلب والاستبداد الشرقية، تلك التي حرمت الأمة من ثمرات نظام الشورى، بل واضطهدت العقلاء والنبهاء خوفًا علي استبدادها، حتى جعلتهم عبرة أخافت بها الجمهور!. (فلقد أخطأ الشرقيون طريق الشورى بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية، فلم

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 463 – 465.

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفًا من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي، وهو وهم لا حقيقة له؛ ولذا نراهم نبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء فرارًا من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء)[1].

وفي النظم التي سمحت بألوان من الشورى، ينتقد النديم (التعويل على استشارة أرباب الأموال وأهل الوجاهة، من غير تخير العقلاء منهم ولا تمييز الأغبياء من الأذكياء..) في الوقت الذي أنفت فيه هذه النظم (من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء وإن كانوا قد امتلئوا علمًا وكسوا نباهة)!.

ويرد على الذين يزعمون ملائمة الشورى للغرب دون الشرق، داعيًا إلى الاقتداء بالغرب في مسيرته (الشوريَّة)، التي صحح فيها أخطاء التجربة (الشوريَّة) بالمزيد من الإصرار على السير على دربها. (فلئن قيل: إن الشورى لا تنجح في الشرق- كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالتسلط- قلنا: إن اتحاد الشرقي مع الغربي في الخَلْق يرد هذه الدعوى الباطلة. وإنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى، وأخذوا يصححون الأغاليط ويراجعون الخطأ. حتى تَرَبّت الملكات، وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضاء الأذكياء منهم، حتى اضطر الأغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في أندية الشورى..)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 351.

(2) المصدر السابق. العدد الثالث والثلاثون. ص 764، 765.

* كذلك دعا النديم إلى إحياء عاداتنا في التجمعات، وفي الأعياد، وانتقد تقليد الغربيين. فلقد تميزت مناسبات اجتماعاتنا - تاريخيًّا - (بالخطب الحاوية لدراسة الأحوال وجمع الآراء وتنبيه الأمة على ما يجب لها من الضرورات. أما جعل الزيارة- في الأعياد- قاصرة على كل عام وأنتم بخير، أو الاقتصار على إرسال ورق الزيارة- (بطاقات التهنئة)- بالبوسطة؛ تقليدًا للأوروبيين، فهو جهالة، وإعدام لثمرة العيد بالمرة)![1].

* ولم يكن النديم متزمتًا في الموقف من الفنون- ومنها فن الغناء- السماع- لكنه كان داعية لمراعاة الخصوصية الشرقية التي ربطت الفنون (بالفضيلة والمزايا الجميلة) فدعا إلى إقامة أندية وطنية للغناء المصري، تكون (مجالس للسماع، خالية من الغوغاء وأم الخبائث- (الخمر)- فإن التِّغَنِّي بالشعر اللطيف، الحاوي للمعاني الرقيقة، المنبه لأفكار العامة للسعي خلف الفضيلة والمزايا الجميلة، مما يحرك الطباع للعمل، ويبعث في النفوس رغبة فيما تضمنه الشعر من مقاصد الشعراء الجميلة. وحبذا لو كان لنا مَغْنًى مصري، خال من الخمور والمومسات والغوغاء، لا يدخله إلا أناس مشتركون فيه شهريًّا أو سنويًّا بتذاكر مخصوصة، برئاسة أشهر المغنين، كالمجيد المتفنن أمير الأغاني عبده أفندي الحمولي وأصحابه الشيخ يوسف خفاجة ومحمد أفندي عثمان وأحمد أفندي الليثي وأمثالهم، ويشترط أن يكون لهذا المغْنَى مجلس ينظر فيما يُغَنّى به من الأشعار والأدوار، بحيث يحجر

---

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 802، 803.

على الأدوار السخيفة والضروب الخارجة عن حد الآداب، فلا يرخص للمغنين إلا بما في سماعه تنشيط، وفي كلماته معان تعجب العقلاء ويرضاها الفضلاء. كما يشترط أن يكون المغْني المصري تحت إدارة مصريين، لا يشاركهم في إدارته أجنبي؛ ليكون وصفه بالمصري جاريًا على حقيقته)![1].

هكذا نظر النديم إلى الغناء، باعتباره فنًّا وطنيًّا جميلًا، يسهم في تميز هوية الأمة وخصوصية حضارتها، بل ودعا إلى جعله مؤسسة وطنية تنهض بدورها في مواجهة التحديات التي تواجه الانتماء والتحرر والنهوض!.

* وإن الإعجاب ليزداد بالنديم عندما نرى اتساع آفاقه التي التمس فيها مقومات الانتماء الثقافي ومنطلقات النهوض الحضاري، حتى لقد نبه على دور (الآثار.. والعاديات)، بل وحتى عظام الأسلاف ومقابرهم، في الانتماء الثقافي المتميز لتاريخنا الحضاري المتميز. وحذر من محاولات الغرب أن ينبش ويسرق، مع تاريخنا، عظام العظماء من الأسلاف والأجداد!. فتحدث النديم إلى أبناء أمته قائلًا ومحذرًا: (عما قريب تُنْبَشُ قبور آبائكم وأضرحة عُبّادكم وسادتكم؛ لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى أوروبا، حتى لا يكون هناك أثر لذي مجد من الشرقيين، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدي تراب قبورهم، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها في أوطانهم حتى يزورها الآتي ويقرأ تاريخها العجيب)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الثالث عشر. ص293، 294.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 530.

فالآثار والعاديات وأضرحة الأولياء ومقابر العظماء، شواهد على المجد التاريخي، وسلاح من أسلحة الانتماء الثقافي في مواجهة التحديات الغربية التي بلغت في الشراسة حد نبش القبور، وسرقة العظام النخرة، تجريدًا لأمتنا من أمجادها!.

* كذلك وقف النديم- في كتاباته عن تراث الأمة، الحامل لخصوصية انتمائها الثقافي- أمام مؤسستين من مؤسساتها العتيقة العريقة الموروثة.. الأزهر، والطرق الصوفية. ولقد تميزت وقفاته بنظرة تجديدية، تحافظ على العراق وخصوصية الانتماء، مع التطلع للمستقبل الذي يستدعي تطورًا من داخل النسق الفكري، يحافظ على ثوابت الهوية ويستجيب لدواعي المستجدات.

فهو يعلن أن (منكر فضل الأزهر كمنكر نور الشمس في اليوم الصائف)[1].. وعلماء الأزهر (هم أئمة الناس في السير إلى المدنية، وهم والملوك في رتبة الأبوة بالنسبة إلى الأمم، بل هم الآباء الذين يؤهلون الملوك للقيام بوظائفهم، فالرتبة العلمية هي الرتبة العليا في العالم الإنساني)[2].

وهو يلح على الحفاظ على استقلال الأزهر عن الحكومة والدولة، وخاصة بعد أن غدت الحكومة والدولة خاضعة لسلطان الاحتلال، ويدعو (ديوان الأوقاف) إلى عدم المساس باستقلال الأزهر، فيقول: (وأملنا من

(1) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 614.

(2) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 603.

ديوان الأوقاف معرفة استقلال الجامع الأزهر واحترام شيخه وعدم إدخاله في الملحقات التي تصيره فرعًا وهو أصل لا يصح أن يلحق بغيره استتباعًا، فإن تقلبات الأحوال حذرتنا من التهاون في مثل هذا الاستتباع– ولا ينجي الأزهر من تلاعب الأفكار به إلا استقلاله تحت إدارة شيخ شيوخه، وإن ثقتنا بالقائمين بالأعمال الآن لا تمنع من تخوفنا من المستقبل إذا استمر الاحتلال لأجل طويل، معاذ الله)![1].

وهذا الأزهر المستقل - الذي هو أصل لا يصح أن يلحق بغيره– كان النديم واحدًا من دعاة إصلاح مناهجه، وتجديد علومه، وتأهيل علمائه بالمعارف والعلوم التي تجعلهم مالكين لمعارف العصر مع معارف التراث، بل وكان النديم داعيًا إلى تربية علماء الأزهر تربية سياسية تجعل لهم دورًا في شئون الدولة إلى جانب أدوارهم التقليدية في شئون الدين. فأنت (ترى كل مشتغل بالأزهر منصرفًا عن الدنيا وما فيها، فلا يقرأ الجرائد العلمية ولا السياسية، ولا يعرف شيئًا من أحوال الممالك، ولا يقرأ تقويم البلدان (الجغرافيا)، ولا علم له بشيء من الجاري بين الملوك والطوائف، ولا وقوف له على حوادث الحروب واختلاف الأمم، ولا إلمام عنده بصنعة أو زراعة أو أصول تجارة، ولا يبحث في مخترع يسمع به ومقترح يرد عليه، كأنه في جب لا ساكن فيه إلا من ماثله في هذا التجرد الشنيع، مع إنه يعلم أنه يطلب العلم ليكون مؤهلًا للإفتاء والقضاء،

(1) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 919، 920.

وهاتان الوظيفتان أرقى وظائف السياسة القضائية المتصلة بكثير من الفروع الإدارية. لقد أبعدت جموع العلماء عن مجالس الأمراء لعدم اقتدارهم على مشاركتهم في تبادل الأفكار، إذ لا يعلمون من لوازم الدولة شيئًا..)![1].

ولهذا الموقف التجديدي، الذي اتخذه النديم، من مؤسسات العلوم التراثية- والأزهر في طليعتها- كان تقدير النديم لمنهاج (دار العلوم)، الجامع بين الموروث وبين الجديد (فدار العلوم خَرَّجت للمعارف أفاضل حازوا فضيلتي الأزهر المنير والمعارف البهية) جميعًا![2].

***

وفي تحديد النديم لدوائر انتمائه الفرعية، بإطار جامع الإسلام، قال: إنه عبد الله النديم، الإدريسي، الحسني، الأشعري، الشافعي، الخلوتي، الإسكندري..)[3].. فذكر الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها- (الخلوتية)- واحدة من دوائره في الانتماء.

لكن ثقافة النديم الإسلامية كانت ثقافة العالم الذي يرى التصوف الحق هو طريق الأئمة الذين التزموا - في أخذ الدين والفكر الإسلامي - مصادرهما الحقَّة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. والذين رأوا التصوف سبيلًا

(1) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 611، 612.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 36.

(3) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون.. ص 999.

لتهذيب النفس والارتقاء بها على سلم الرياضات الروحية، ملتزمين في كل مراحل الطريق بأحكام الدين وفق قواعد أهل السنة في استنباط الأحكام. فطريق التصوف الحق - عند النديم - هو (الطريق المسلوك للقوم، المبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه والتهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم)[1].

ومن هذا الموقع للتصوف الملتزم بالشريعة كان نقد النديم للبدع الفكرية- بل والكفرية- وللممارسات الخرافية التي التصقت بكثير من طرق الصوفية، والتي حسبت على التصوف زورًا وبهتانًا. فبعد أن حدد طريق التصوف الحق، استطرد فقارن بينه وبين ركام الانحرافات والخرافات السائدة لدى كثير من المنتسبين للتصوف، فقال: (.. وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود، واستبدال السنة بالبدعة، وترك الشرع بهوى النفس، والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة، وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن بعض الصوفية، مدعيًا وصوله إليه من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر، اللهم إلا عند البوذية من المجوس فإن لهم أقوالًا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود، وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة. ولله درُّ (العلامة الشيخ

(1) الرابع والثلاثون. ص 787.

جمال الدين- (الأفغاني)- حيث أخبر السيد البكري- (شيخ مشايخ الطرق الصوفية)- أن القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان، ودخل في العرب عند ترجمتهم كتبهم، فهو دين متداخل في دين، من غير شعور الآخذين به)[1].

وغير هذه (البدعة- الفكرية- الكفرية)- القول بوحدة الوجود- والتي جعلت هؤلاء المبتدعين يتغنون بعبارات من مثل: (وما الكلب والخنزير إلا إلهنا)!. و(أنا من أهوى ومن أهوى أنا)[2]! هناك الممارسات البدعية في الموالد، حتى لقد قال الإفرنج: لنا كرنفال في السنة، ولكم في كل مولد كرنفال)![3].

يهاجم النديم كل ذلك، قائلًا: (فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟! وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون. إنهم إن تمادوا في بهتانهم وافترائهم على الله ورسوله، اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها، وأوردنا أقوال أهل السنة فيها، وتكفيرهم القائلين بوحدة الوجود)![4].

---

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 787. والعدد الخامس والثلاثون، ص 841.

(2) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 788.

(3) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 789.

(4) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 786، 788.

لقد كان انتماء النديم، في الثقافة الدينية إلى الأشعرية في الأصول- وهي تيار الوسطية الإسلامية، الذي استقطب جمهور الأمة في تصورات الاعتقادات، وإلى المذهب الشافعي- في فقه الفروع- وهو الذي استقطب جماهير واسعة في مصر، بعد أن استوطنها الشافعي، محمد بن إدريس (150 - 204 هـ، 767 - 820م) وأبدع فيها مذهبه الجديد، وإلى التصوف السني- في طريق تهذيب النفس بالمجاهدات الروحية.

وكان في جميع دوائر هذا الانتماء الثقافي عقلًا ناقدًا، وفكرًا مجددًا، كواحد من علماء وأعلام مدرسة التجديد الديني والإحياء الإسلامي- مدرسة الجامعة الإسلامية.. والرابطة الشرقية- التي تبلورت من حول موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني.

الآخر.. السياسي، والحضاري، والثقافى

وفي مقابل هذا (العالم الثقافى) الذي انتمى النديم إلى دوائره ومكوناته ومنطلقاته ومثله ومعاييره.. عالم الإسلام والجامعة الشرقية، والذي اتخذ فيه موقعه، كواحد من تيار الإحياء والتجديد. كان هناك (الآخر) السياسي والحضاري والثقافي الذي كانت حياة النديم ملحمة من ملاحم الصراع معه، والنقد له، والكشف لأحابيله التي نصبها للشرق والشرقيين. كان هناك الغرب الاستعماري، وتبشيره الديني، وغزوه القيمي والثقافي، وكان هناك (الأجراء) و(العملاء)- من أبناء جلدتنا- الذين اتخذوا موقع (التبعية) و(الأدوات) للاستعمار الغربي في بلادنا!.

* فالغرب - كمشروع استعماري - قد وظفت دوله الأوروبية النظام الدولي والمعاهدات الدولية لحل تناقضاتها وتوحيد كلمتها في مواجهة الشرق وفي سبيل استعماره (فبالمعاهدات الدولية اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا..)[1].

---

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 346.

* والاستعمار الغربي يحاول أن يستر مقاصده- في النهب الاقتصادي، والاستبداد السياسي، والاستعلاء العنصري، والمسخ الثقافي والقيمي، والتعصب الديني- بشعارات كاذبة عن (الإصلاح وبث المدنية). ذلك (أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وقطع عروق الجهالة والخشونة من العالم وهي علل باطلة ودعاوى كاذبة يبعث على افترائها حب الاستبداد من أمم تدَّعي الحرية وهم لم يشتموا لها رائحة إلى الآن[1]!. فهم يربون إنسانهم على عداوة مثله، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه، فيخرج منكرًا على مثيله صورته، مدعيًا أن غيره وحشي الطبع همجي السير، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده!. منكرين وحدة الإنسانية، كرابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا..)[2].

ولقد فضحتهم ممارساتهم الاستعمارية في بلادنا، فبالنهب الاقتصادي، والاستبداد السياسي (أصبح الأجنبي الحقير في بلادنا أعز من اللورد والسير والبارون في بلاده[3]!، وبالقوانين الأجنبية والمحاكم الأجنبية، التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها)[4] جردوا هذا الفلاح من ممتلكاته!.

---

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 514، والعدد الرابع والثلاثون. ص 794.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 412.

(3) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 946.

(4) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 410.

* والغرب- كدوائر حكم، وجماهير غفيرة- قد استعان على تبرير اجتياحه لديارنا واحتقاره لثقافتنا، بتشويه صورة ديننا الإسلامي في وعي أبنائه، فهم يزعمون (أن جماعة من العرب دعتهم الفاقة إلى اتخاذ قطع الطرق وسيلة لثروتهم، فاتخذوا لهم رئيسًا اسمه محمد بن عبد الله، وساروا تحت رأيه، وأخذوا في مهاجمة الأمم ونهب البلاد، فلما علت كلمتهم وسرى صوتهم في الأقطار، ادَّعى قائدهم أنه صاحب شريعة، وأخذ يضع لهم تعاليم دينية جمعهم عليها..)![1].

* والغزوة الغربية لبلادنا الشرقية، لا تقف عند احتلال الأرض ونهب الثروة، وإنما هي- مع ذلك- غزوة للقيم والأخلاق، تستهدف حل عروة الدين الإسلامي التي هي أوثق العرى في جامعتنا الشرقية، وإحلال المدنية البهيمية محل المدنية الشرقية الملتزمة بمثل الدين ومعاييره!.

يرى النديم ذلك، فيكتب تحت عنوان (العَدْوَى الأوروبية للبلاد الشرقية) فيقول: (إن من قابل بين بلاد الشرق قبل استيطان الأوروبيين بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراهنة، من حيث الآداب العامة، رأى فرقًا كبيرًا وتباينًا عظيمًا. فإن الواقف على عادات الشرقيين وقواعد أديانهم يعلم أن المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين يرون تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية، ويرون

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 422.

صيانة الأعراض من الواجبات. وكانت الحكومات الشرقية محافظة على الآداب الشرعية والحقوق الشخصية، فكانت الأعراض مصونة والرجال آمنين على بيوتهم، غابوا أو حضروا. وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر، والإسرائيليون لا يشربونها إلا في الأعياد، والمسيحيون لا يشربون إلا القليل في أوقات مخصوصة، أما نساء الأقسام الثلاثة، فإنها ما كانت تذوقها، ولا كان الرجال يدخلونها عليهن؛ لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتضاح والميل إلى البغاء. فلما تداخل الأوروبيون في البلاد الشرقية، بالتجارة والتغلب، أفسدوا أخلاق الرجال والنساء بما أدخلوه فيهم من مسمَّى مدنيتهم التي هي رجوع إلى البهيمية. وكنا نتألم نحن معاشر المصريين من هذا العيب القبيح، ظنًّا منا أن ما أدخله الإفرنج من المصائب لم يصب به غيرنا، ولكننا علمنا من أحوال تونس ما هو أقبح وأشنع، فعلمنا أن ذلك أمر مقصود لكل دولة أوروبية حلت بلادًا شرقية، لحل عروة الدين التي هي أوثق العرى في الجامعة العصبية والالتئام الوطني. لقد أسودَّ وجه المجد بما يسفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقرود في التقليد الأعمى)![1].

* ومع تغيير القيم والعادات، وحل عروة الدين، التي هي أوثق عرى الجامعة العصبية والالتئام الوطني- استهدفت هذه الغزوة الغربية إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، وإحلال النزعة

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 779 - 782، 784.

الوضعية والفلسفة المادية محل التصورات الإيمانية في تفسير الكون والحياة والتاريخ، وإحلال اللغة الأجنبية محل العربية، (إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا. كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس؛ حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام؛ توسيعًا لنطاق النسخ الديني. ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية، وألمتهم بتعلم لغتها. والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين؛ لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينًا فيثورون عليهم، ولإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية..)![1].

ولقد أفاض النديم في فضح مقاصد الغرب الاستعماري، كنقيض حضاري وثقافي وقيمي، بل ولم تمنعه القيود التي فرضتها سلطات الاحتلال على اشتغاله بالسياسة- كتدبير يومي للدولة- من الدعوة إلى إجلاء جيوش الاحتلال، وإن يكن قد حبذ الطريق السلمي لتحقيق ذلك (فبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها)[2]!.

---

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 514، 515.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 528.

* ومع ذلك، فإن النديم لم يغفل الوجه الآخر للحضارة الغربية. (فكم للغرب من آثار كانت زينة للشرق، وزيادة في قوته العاملة والمدبرة..)[1]. ومن علماء الغرب من أنصف الإسلام (وأثبت انفراده من بين الأديان بتعليم أساليب الحرية وأفانين الفضائل..)[2].

بل وكان النديم داعية إلى معرفة ما لدى الآخر- بدلًا من الرفض لأنه آت من الآخر- ثم عرض هذا الوافد على أصولنا ومعايير اعتقادنا ومنطلقات انتمائنا الثقافي وخصوصيتنا الحضارية، وبعد هذه الرؤية المقارنة والموقف النقدي يكون الرفض أو القبول. ذلك (أن الذي نراه مغايرًا للدين، لم تظهر لنا مغايرته إلا بعدم الاشتغال به، ووصوله إلينا على يد من يخالفنا دينا، فلو اشتغلنا به لأمكننا أن نرده إلى أصولنا بالتأويل أو القياس، أو ندافع عن أصولنا ببيان الفاسد فيه. وأما رده دفعة، بلا نظر ولا استدلال، فإنه تعصب للجهل، لا للعلم والدين، فإننا لا يمكننا أن نقيم حجة على فساده ونحن لم نشتغل به)[3].

ذلك هو منهاج النديم في رؤية الآخر الحضاري والثقافي: العلم بما لديه، وجعل أصول اعتقادنا ومعايير انتمائنا الثقافي هي القاضي فيما نأخذ وفيما ندع

---

(1) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 141.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 423 – والإشارة للعالم الفرنساوي (سيديو) في كتابة (التمدن الإسلامي).

(3) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 608، 609.

من بضاعة الآخرين، وهو المنهاج القرآني، منهاج ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[2]؟، ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]، بينما كان منهاج الشرك الجاهلي هو التعمية والمصادرة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4]!.

(1) البقرة: 111.

(2) الأنعام: 148.

(3) الأحقاف: 4.

(4) فصلت: 26.

الأجَرَاء.. المبشرون بالنموذج الغربي

ولأن أوروبا قد زحفت علي بلادنا- في الغزوة الاستعمارية الحديثة- كما يقول النديم (.. وقد أحكمت التأليف بين القوتين: الدينية، والملكية، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد. ومقبحة لما عليه الشرقيون من دين وسيرة ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، ولا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتمِ إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعاداته)..![1].

لأن هذه هي آفاق مقاصد الغزوة الأوروبية الحديثة؛ فلقد جعلت في آلياتها للفكر والثقافة والتعليم والإعلام مؤسسات وكتائب سبقت وصاحبت غزوات الجيوش وسلطات الاحتلال.

فالقناصل الفرنسيون في الشام يتحدثون - في مراسلاتهم - عن مقاصد مدارس إرساليات التبشير، التي ركزت على الطائفة المارونية،

---

(1) (الأستاذ) العدد الثاني والعشرون. ص 705، 706.

فيقولون عن هذه المقاصد: (إنها تأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة، وجعل البربرية العربية تنحني لا إراديًّا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا)![1].

ومن بين خريجي مدارس التبشير هذه، وفد إلى مصر عدد من المثقفين الكارهين للإسلام وحضارته- لثقافتهم الغربية، ولمذهبهم الديني، ولتناقضاتهم الطائفية مع الدولة العثمانية- فاحترفوا التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، وأقاموا المنابر الثقافية والإعلامية التي تدفقت من نوافذها ثقافة الغرب ونظرياته ومثله وقيمه ورؤاه السياسية، محاولين إقامتها في بلادنا بديلًا للحضارة الإسلامية. وكان من بين هؤلاء أصحاب مجلة (المقتطف) (1293 - 1371هـ، 1876 - 1952م) وجريدة (المقطم) (1306 - 1371 هـ، 1889 - 1952م) وكتابهما، من مثل يعقوب صروف (1268 - 1345 هـ، 1852 - 1927م) وفارس نمر (1272 - 1370 هـ، 1856 - 1951م) وشاهين مكاريوس (1269 - 1328هـ، 1853 - 1910م) وأمين شميل (1243 - 1315 هـ، 1828 - 1897م) وشبلي شميل (1276 - 1335 هـ، 1860 - 1917م) الخ، الخ. وأضرابهم من خريجي مدارس إرساليات التبشير، الذين احترفوا صناعة

(1) من محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، لسنوات 1840 - 1898م - انظر كتابنا (هل الإسلام هو الحل)؟ ص 22. طبعة القاهرة سنة 1995م.

التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، وكانوا- بعد احتلال الإنجليز لمصر- أركان سلطان اللورد كرومر (1841 - 1917م) والسياسة الاستعمارية في مواجهة الحركة الوطنية المصرية في ذلك التاريخ.

ومع هذا التيار التغريبي كان صراع النديم!.

فهو يصفهم بـ(الأجراء، أضداد مصر والمصريين، المؤسسين للفتن، والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف..)[1] (فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة..)[2]، (وهم الذين نبتت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي، فانفعلت لها أرواحهم، فكلما حولتهم عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ!، فإذا قالت جريدة وطنية: ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك بعرضٍ، قامت جريدتهم لتقول: إن هذه دعوة إلى الهمجية وتقهقر المدنية، وإذا قال كاتب وطني: إن صلاحنا في

(1) (الأستاذ) العدد الرابع والعشرون. ص 564 - 567.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 510.

استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قالوا: إننا غير مؤّهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح، وإذا قال خطيب: إن سعينا خلف تعلم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظّم ثروتنا، عارضوه قائلين: (لا معادن عندنا، ولا معامل في بلادنا، ولا صناع فينا، ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير..)!.

والنديم يلتمس العذر للأجنبي المستعمر، ولا يرى عذرًا لهؤلاء الأجراء العملاء. (فلا يُلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق، ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا يسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه. فالأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال، وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده، وإغراء الغير بهم؛ طمعًا في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه!..)[1]، (ولا يلام الغربي على تداخله في شئون الشرق وأهله، فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمان، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربيين..)[2]، (وليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن

(1) المصدر السابق. العدد السابع عشر. ص 388 – 390.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 411.

لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا..)[1]، (إذ لا يلزم من استحسان الغير لشيء نفعه لآخر..)[2].

(لقد استمالت أوروبا هؤلاء الأجراء، فانتموا إليها، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا..)[3]، ولقد (اعتمدت إنكلترا على جرائد هؤلاء الأجراء، تحرك بها نار النفرة بين المصريين..)[4]، والنديم لم يقف في فضح تيار التغريب هذا، بما كتب من مقالات، ندر أن يخلو من إحداها عدد من أعداد (الأستاذ) فنظم في فضحهم الشعر أيضًا!، وخاطب المصريين والشرقيين، فقال:

وحاشوا أناسًا أُشربوا حب غيركم ... وهم منكمُ لكن يسرّهمُ الشر

مثالهمُ بعض الأُلى أنشأوا لكم ... جرائد يزهو في صحائفها السطر

ومن بات مسرورًا بخدمة غيركم ... ومُثْرٍ له من فضل أعدائكم وَفْرُ

ينادونكم للغير باسم صلاحكم ... وسم الأفاعي في صناعتهم حِبْرُ[5]!

***

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 417، 418.

(2) المصدر السابق. العدد الأول. ص 15.

(3) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 420.

(4) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 914.

(5) المصدر السابق. العدد الرابع والعشرون. ص 564.

والنديم لا يدع مجالًا للشك في أن سهامه الوطنية والحضارية والدينية إنما هي موجهة إلى أجراء الأجنبي وعملاء الحضارة الغربية، من تيار (المقتطف) و(المقطم) على وجه التحديد.

فهو يصف كتاب (المقتطف)، الذين جعلوا مجلتهم نافذة للنظريات الوضعية والمادية الغربية، بأنهم (أعداء الله وأنبيائه) و(الأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان..)[1]!.

وهم (أعداء أنفسهم، دفعتهم يد الطرد إلى النزوح عن وطنهم إلى مصر المحروسة، فالتجئوا إلى بعض أمرائها فأكرمهم ظنًّا أنهم من أرباب الأقلام أو ذوي الأفهام، بما يراه في جريدتهم التي ما فيها إلا تراجم عن جرائد أوروبا العلمية، فقربهم أمراء مصر اعتمادًا على أنهم شرقيون عثمانيون، لا يخدمون إلا دولتهم، ولا يغشون إخوانهم، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة، وأنكروا المعروف، وانحازوا إلى الغير. واغتروا بعناوينهم، وظنوا أن العلم محصور في تعلم الإنسان لغة غير لغته، يترجم بها كتب قومها، ويغرب بها

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 923، 924.

على من لم يعرفوها، موهمًا أن المسطر تصنيفه والمجموع تأليفه، وهذا هو الجهل المركب الذي صيرهم أعداء لأنفسهم وهم لا يشعرون..)[1]!.

وعندما تجيب (المقتطف) عن سؤال قارئ مسيحي- إسكندر أفندي صعب- حول السد الذي بناه- الإسكندر- ذو القرنين- والذي وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم، وتقول في جوابها: (إن ذلك كله من الأقوال التي لا دليل على صحتها)!، يتصدى النديم لهذا التشكيك في القصص القرآني، ويقول: (إن قصة السد ويأجوج ومأجوج ذكرها القرآن العزيز، وهو شائع ذائع معلوم لمحرري المقتطف، والقرآن لم يتعرض لتعيين جهته ومساحته واسم واضعه. فلا يقال- ما قالت المقتطف- من أن السائحين وصلوا الجهة التي أخبر القرآن عن وجود السد بها ولم يجدوا شيئًا، وأدب الكتابة، وحفظ علائق المحبة يقضي بالبعد عن الطعن الديني في جريدة تنشر بين المسلمين وفي بلادهم. فالمسلمون لا يرضوا أن يروا الطعن في كتابهم بلسانهم منشورًا بينهم..)[2]!.

أما أصحاب (المقطم) فهم- برأي النديم- (الأجراء.. الخونة.. عملاء الأجانب، الذين خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم. وذلك عندما داروا حول أبواب الإنكليز، يوهمونهم أنهم عبيدهم الخاضعون، وخدمهم

---

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 937 – 939.

(2) المصدر السابق. العدد الحادي والعشرون. ص 497 – 50.

المخلصون، وجواسيسهم الناقلون، وتراجمتهم المتبرعون، فوسوسوا لهم وسوسة إفساد وإغراء، وخوفوهم من المصريين، وحذروهم من الركون إليهم والاعتماد عليهم، فأبعدوهم عن الخدمة، وحشدوا مكانهم الغرباء، حتى كأن ثمرة مصر ما حرّمت إلا على أبنائها. ثم نشروا تلك الجريدة الخرقاء، يوهمونهم أنها مقبولة عند المصريين، ولجهل الإنكليز بالعربية صدقوا هؤلاء الأبالسة، وألزم أتباعهم كثيرًا من الناس بالاشتراك فيها ليعمموا نشرها في البلاد. وهي عدوة المصريين)!. (فهي جريدة لشق عصا الاجتماع الشرقي..)[1]!.

بل إن النديم يصنف (المقطم) ضمن (الجرائد الإنكليزية التي تصدر في مصر)[2]!. وأصحابها- عنده- ممن (تعلم في مدارس الغير، على نفقة أهل الخير، فخرج مصطنعًا، لا يعرف له وطنًا ولا شرفًا ولا قبيلة[3]. يغمسون أقلامهم في نعمة الشرقيين ليكتبوا بها معايب لمن أغنوهم، ويجلبوا بها مصائب لمن آوروهم، فما يضرك إلا رجل يدعي أنه أخوك، يناديك بلهجتك ليخرجك من بيتك ويسلمك إلى النخاسين الذين طافوا

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 934، 935، 945، 947، 932. وانظر كذلك صفحات 924 – 933.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1029.

(3) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 934.

الأرض لاسترقاق الأحرار!. لقد استخدمهم الغربيون بأجرة لا تزيد على ثمن نعل!. وبرغيف يحصّله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ!. وهم يستدعون أوروبا بدعوى المحافظة على الأمن والخوف من الحركات الدينية[1]!.

ولقد احتدمت المعركة بين (المقطم) وبين (الأستاذ)، والنديم يكتب: (لقد خصتنا جريدة المقطم بسبب شخصي وقذف ذاتي، افتراء، فقابلناها بحلم الأدباء وصفح الكرماء وصمت الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)[2].

ولما أعيتهم الحيلة، سعوا إلى سلطات الاحتلال طالبين نفي النديم من مصر؛ كي لا يصنع ما سبق وصنع إبان الثورة العرابية مرة أخرى!. بل وكان (المقطم) أول من أشار إلى القرار الاستعماري بنفي النديم. (لقد بارت تجارة الأجراء، فلم يجدوا طريقًا تنفق به سلعتهم إلا السعاية. ولقد أرجفوا بأن محرر (الأستاذ) سيبعد عن مصر..)[3] وبعد شهر واحد من هذا الإرجاف بنفي النديم، كان الرجل يودع قراءّه، بمقال جعل عنوانه (تحية وسلام)، طوى به صفحة أول منبر وطني في الصحافة المصرية بعد هزيمة العرابيين. وفي ختام صفحات أعداد (الأستاذ) قال: (وما خُلقت الرجال

---

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 798، 799. والعدد الثاني والعشرون. ص 532.

(2) المصدر السابق. العدد الأربعون. ص 975، 976.

(3) المصدر السابق. العدد السابع والثلاثون.. ص 889.

إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر. وعلى هذا فإني أعلن لإخواني قائلًا:

(أودعكم والله يعلم أنني ... أحب لقاكم والخلود إليكمُ

وما عن قِلًى كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت، فالسلام عليكمُ![1]**)**

***

لكن (الأستاذ)، التي مثلت في ذلك التاريخ: ديوان الوطنية المصرية والجامعة الشرقية والحضارة الإسلامية، كانت الأستاذ الذي تعلم على يديه مصطفى كامل (1291 – 1336 هـ، 1874 – 1908م) فكان (الحزب الوطنى)، حزب الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية، ذلك الذي خرجت من عباءته القوى التي واصلت الجهاد الوطني، والرباط على ثغور الخصوصية الحضارية.. فتوالت، ولا تزال تتوالى صفحات التدافع الحضاري بين فكر عبد الله النديم– أبرز المعبرين عن أحشاء مصر، وهوية أبناء الشرق– وبين الذين (استمالتهم أوروبا، فانتموا إليها، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا). كما قال النديم – عليه رحمة الله – .

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1032.

2

بين يدي هذا الكتاب

كل الذين اقتربوا من سيرة عبد الله النديم وفكره وجهاده يجدون أنفسهم أمام نموذج متفرد في كثير من الصفات، والكفاءات، والعطاءات:

* فهو شاعر شعبي عملاق.

* وهو محاور- بالشعر والنثر- على البديهة- وأمام الجماهير- لم يهزم في يوم من الأيام.

* ومدافع عن اللغة العربية الفصحى، بوعي حضاري أصولي ومعاصر ومستقبلي، رفع شعار: (التفريط في اللغة إضاعة للذات).

* وهو خطيب مفوه، عشقته الجماهير والنخبة- وخاصة إبان الثورة العرابية- على نحو منقطع النظير. حتى إنه عندما كان يتولى تقديم خطباء المهرجانات الشعبية كان يقدم كل خطيب بخطبة، ويودع كل خطيب بخطبة، والجماهير لا تمل سماعه أبدًا، وهو في ذلك لا يكرر نفسه أبدًا!.

* وهو ملحمة من ملاحم النضال الوطني ضد الاستعمار، في القرن الذي شهد ذروة الزحف الاستعماري العربي على بلاد الشرق والإسلام. ولقد مثلت سنوات اختفائه من سلطات الاحتلال أسطرًا تنتظر من يقدمها رواية عظيمة وفيلمًا عالميًّا!.

* وهو صحفي، ارتاد ميدان الصحافة الثورية في الشرق، حتى لقد كان يصدر صحيفته- إبان الثورة العرابية- من ميادين القتال ضد الغزاة الإنجليز. وكأنها منشور ثوري يجيش الوطنية والمواطنين ضد الاحتلال.

* وهو واحد من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، الذين تتلمذوا على يدي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والذين سعوا إلى تجديد الفكر الإسلامي لتتجدد به حياة المسلمين.

* وهو قمة شامخة من قمم الوعي العميق بضرورة تنمية الانتماء- انتماء شعوب الشرق- إلى الوطنية، والقومية- الجنسية- والرابطة الشرقية، وحضارة الإسلام.

نعم، لقد كان القديم كل ذلك، وأكثر من ذلك، فحياته وفكره وجهاده (ديوان) ينتظر من يحوله إلى نموذج تتعلم منه الأجيال.

* وفوق كل هذا الذي أشرنا إليه، فإن القارئ لدراسة النديم التي كتبها عن سنن التقدم والتخلف، والتي أجاب بها عن سؤال: (بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا.. والخلق واحد؟) سيكتشف في النديم أبعادًا جديدة فوق التي أشرنا إليها، سيكتشف فيه فيلسوفًا في فقه الحضارات، وفي السياسات الدولية، وفي الوعي بالتاريخ، وصناعة التاريخ، كما سيكتشف فيه الرائد الذي ارتاد ميدان الإجابة على ذلك السؤال الذي أرق عقول الشرقيين وضمائرهم عندما

رأوا تراجع الدولة العثمانية- الدولة الإسلامية الجامعة، واجتياح الإمبريالية الغربية لأقطار الشرق الإسلامي، وغواية النموذج الحضاري الغربي لقطاع من النخبة والصفوة في بلاد الإسلام، وتشكيك كثير من المستشرقين في صلاحية الإسلام كي يكون نموذجًا للتقدم والنهوض.

في ذلك المناخ، وهذه الملابسات، تقدم النديم وارتاد ميادين الإجابة- العلمية الموضوعية العميقة- على سؤال العصر- وذلك قبل أمير البيان شكيب أرسلان (1286 - 1366 هـ، 1869 - 1946م) بأربعين عامًا، وذلك ليدعو النديم أمته إلى اكتشاف حقائق وسنن التقدم والتأخر، والنهوض والتراجع والفوز والخسران، فاتحًا بذلك أبواب الأمل أمام شعوب الشرق في الانعتاق من أغلال المأزق الحضاري الذي صنعه (التخلف الذاتي الموروث) وسعت إلى تكريسه الهيمنة الغربية على بلاد الإسلام.

* لقد رصد النديم- في هذه الدراسة- أسبابًا أصلية أربعة بها تقدمت الدول الأوروبية في عصر نهضتها الحديثة:

أولها: توحيد اللغة في الدولة؛ لأن اللغة من أهم العوامل في توحيد الجنس والقومية، وبعث الحمية بين الذين يتشاركون فيها، كما أنها سبيل للمغايرة التي تمثل حاجزًا أمام اختراق الغير لحماها، والسبيل- كذلك- لجمع الشمل لاسترداد الوطن والهوية إن عدا عليهما الأعداء، وذلك فضلًا عن أنها وعاء الثقافة التي تمثل قسمات الانتماء.

وثانيهما: توحيد السلطة الحاكمة للشعب والقوم؛ لأن تفتت السلطة والدولة إنما يفتح الأبواب- وإن بالتدريج- إلى إضعاف السمات والقسمات الجامعة للجنس والقوم، ومن ثم يفتح الثغرات لعوامل التخلف والتراجع والانحطاط.

وثالثها: توحيد الجامعة الدينية؛ ولتحقيق ذلك - في التاريخ الأوروبي الحديث - رُفع شعار: (دين واحد للدولة الواحدة، وخاض الملوك والأمراء الأوروبيون حروبًا دينية أبيد فيها 40 ٪ من شعوب وسط أوروبا، وذلك لتحقيق الوحدة والانسجام الديني في كل دولة من الدول القومية الأوروبية.

ورابعها: تلك المعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبية- بعد استكمال عوامل تقدمها- وذلك لضبط تناقضاتها القومية، ولتوجيه طاقاتها نحو استعمار بلاد الجنوب، ونهب ثرواتها، وإلحاقها بالمركز الحضاري الغربي، على أمل اجتثاث الإسلام- الهوية الشرقية الكبرى المغايرة للغرب- في نهاية المطاف.

* لقد رصد النديم- في دراسته هذه- الأسباب الموضوعية الأصلية الأربعة، التي أثمرت تقدم الأوروبيين، والتي افتقدها الشرق والشرقيون في حقبة عزلتهم وتراجعهم الحضاري، حتى لقد صارت أسباب التقدم الأوروبي هذه لغزًا لدى كثير من الشرقيين!.

وإلى جوار هذه الأسباب الأصلية الأربعة، التي أثمرت التقدم الأوروبي، رصد النديم أسبابًا فرعية ستة، دعمت هذا التقدم، وعمقت جذوره، وأطالت من عمره، وساعدته على مواجهة الطوارئ والعاديات. وهذه الأسباب الفرعية الستة هي:

1 - إطلاق حرية الفكر والكتابة؛ لتربية الأمم وتهذيبها.

2 - تجميع رؤوس الأموال في مؤسسات وشركات مساهمة، وحماية الاقتصاديات الوطنية في مواجهة المنافسة الخارجية.

3 - تشجيع التنافس والابتكارات والاختراعات في علوم التمدن المدني؛ لتطوير الواقع المعيشي.

4 - تعميم التعليم وتوحيده، وجعله إجباريًّا، وجعله تعليمًا وطنيًّا، يحافظ على الهوية القومية والحضارية.

5 - إقامة مجالس الوزراء، ومؤسسات الشورى في كل دولة من الدول؛ لمنع الاستبداد بالسلطة والطغيان.

6 - إقامة المؤسسات لأهل الفكر والعلم والثقافة، التي تمثل عقل الأمة، والتي تجمع الطاقات الفكرية، وتديم عطاء الفكر في البلاد، والتي توازن سلطات الدولة وسطوة الحكام.

❋ تلك هي الأسباب الأصلية والفرعية التي رصدها العقل الفلسفي

للنديم، كأسباب للتقدم الأوروبي والتي صاغها وقدمها- في دراسته هذه - ليقول لقومه: إن للتقدم سننًا وقوانين أبوابها مفتوحة أمام كل بني الإنسان، وما على الذين يريدون الانعتاق من أغلال (التخلف الموروث) ومن (الهيمنة الغربية) التي تحرس هذا التخلف الموروث إلا أن يأخذوا بالأسباب.. لا بالأوهام، أو الوقوف عند مجرد الأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

وبذلك نبه النديم شعوب الشرق على الخطأ الذي وقعوا فيه عندما تنكبوا طريق التقدم، وساروا في عكس اتجاهه ولم يأخذوا بأسبابه، وسقطوا في وهم: أن كلًّا من التقدم الأوروبي والتخلف الشرقي إنما هما ضربة لازبٍ ليس منهما فكاك!.

*وخلال هذه الدراسة الحضارية العميقة، فنَّد النديم المزاعم الاستشراقية التي ادَّعت أن الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين، فهذا الإسلام هو الذي مثل السبب الأول في نهضة الشرق وأهله، حتى جعلهم (العالم الأول) على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون. (فالدين الإسلامي والأديان الشرقية لم تكن السبب في التأخر- كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا- بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه).

(1) النساء: 123

* وكذلك رد النديم مزاعم الذين قالوا إن المناخ في البلاد الشرقية هو السبب في كسل الشرقيين وقعودهم عن التقدم والنهوض، (ذلك أن الجوهر هو الذي كان فيه المتقدمون من المصريين والفينيقيين والفرس والهنود والعرب والترك، وقد تحققنا أن التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات، فإذا أطلق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة وتعميم المعارف في المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، أمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا..).

* وفي حديث النديم عن المعاهدات الدولية التي ضبطت بها الدول الأوروبية تناقضاتها وخلافاتها- فيما قبل الحروب الاستعمارية العالمية- وفي حقبة المد الاستعماري الأوروبي على الشرق، تحدث عن اجتماع الدول الأوروبية على استثمار وحدتها في غزو الشرق، فقال: (لقد اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا..).

* وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد تحدثت عن آية المنافقين؛ فلقد تحدث النديم عن آيات النفاق الأوروبي في تعامله مع مصر والشرق، فقال: (إنه ما من مصري إلا وهو يعلم الآن أوروبا لا تصدق في قول، ولا تفي بوعد، ولا تحب شرقيًّا، ولا تسعى في خير مصري، وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش)!.

* وبعد أن أكد النديم على أن وحدة الدين، واللغة، والسلطة كانت في مقدمة أسباب التقدم الأوروبي، تحدث عن اجتماع كلمة الدول الاستعمارية الأوروبية على حرمان الشرق من أسباب التقدم هذه وذلك لتكريس تخلفه، وإبقائه تحت الهيمنة الأوروبية، فقال: (.. ولعلم الأوروبيون أن وحدة الدين إذا انضمت إلى وحدتي اللغة والسلطة قامت المملكة على أساس متين، اهتموا بنقل الأمم الشرقية بطريق التدرج، فهل تقهر فرنسا أهل الجزائر وتونس على ترك دينهم، كما فعلت إسبانيا مع مسلميها عند تغلبها عليهم؛ حيث ألجأتهم إلى التنصر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنكلترا لم تكره مسلمي الهند، ولا روسيا قهرت مسلمي طرغستان والتركمان وغيرهم ممن هم في حوزتها، وإنما التزمت كل دولة أن تعمم لغتها فيهم، وأن تفتح المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمة الحاكمة، وتمنع تعلم الدين إلا مبادئ قليلة جدًّا تموه بها على ضعفاء الإدراك؛ ليخرج

المتعلمون فارغين من الدين، فيسهل نقلهم لأي دين بعد، فإن تعرضت أمة شرقية لذكر دينه ولم تكن محكومة بأمة أوروبية، نودي عليها بالتوحش والخشونة والهمجية، وقيل إن هذا تعصب ديني، مع أن التعصب الديني لا يوجد إلا في صنع أوروبا، ولكن القوة تقول للضعف ما تشاء!. لقد عملت الدول الأوروبية على إعدام اللغات الوطنية للشرقيين؛ وذلك حتى يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية. كما حجرت على المدارس تعليم بعض العلوم الشرعية، وألزمتهم بتعلم لغتها، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين؛ لئلا يعلموا أنهم يغايرون الأوروبيين دينًا فيثورون عليهم. كما عمدوا إلى نشر ما يصادر الأديان، ويوقع الشرقيين في الشك والتردد حيال العقائد الدينية، ثم تدرجوا الإماتة اللغة الوطنية، وذلك بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية لننسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا- كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراهم!).

* كذلك كشف النديم الغطاء عن الخداع الأوروبي الذي يدعي احترامه لأديان الشرق، فتحدث عن ارتباط التنصير الكنسي بالاستعمار (فلقد أحكمت أوروبا التأليف بين القوتين الدينية والملكية (السياسية) فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد!. فخرج الأوروبيون من بلادهم إلى الشرق محمولين على قوتي الدين والملك).

* وحتى يتأبد الاستعمار، وتتأبد التبعية الشرقية للمركز الحضاري الغربي، سعى المستعمرون لطمس عناصر الهوية الحضارية الإسلامية، التي تحفظ مغايرة الشرقيين للغربيين، فامتد الغزو الفكري إلى الميادين القانونية والاجتماعية للشرقيين. فبعد الغزو بالقوة الخشنة يأتي الغزو بالفكر والقوة الناعمة. (ذلك أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا، فلا تقدم على العمل، بل تفعل الشيء على قبول التجربة، فإن نفذ فقد مضى، وإن عورضت فيه التزمت التأويل، كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس؛ حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحول كثيرًا من مواده إلي مواد ينكرها الإسلام؛ توسيعًا لمناطق النسخ الديني، ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه وإن لم يكن هو هو، ولم ينتطح في إصلاح مواده المخالفة غنزان)!.

* ويكشف النديم عن دور العامل الديني فيما كان يسمَّى آنذاك (بالمسألة الشرقية) والموقف الأوروبي من الدولة العثمانية- دولة الخلافة الجامعة- التي مثلت سياجًا إسلاميًّا لحماية الشرق من الغزو الأوروبي

عدة قرون. فلقد مثَّل الدين عاملًا أساسيًّا في عداء الأوروبيين لهذه الدولة العثمانية، (ذلك أنه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة، ولكن المغايرة الدينية، وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيرًا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع. وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصير وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا، وأحسنها تبصرًا، وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية، غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا).

* وانطلاقًا من هذا البعد الديني للهيمنة الأوروبية على الشرق- الذي تتدين أغلبيته بالعقيدة الإسلامية، وتنتمي كل شعوبه إلى الحضارة الإسلامية- سعى الأوروبيون إلى إحلال الكنائس محل المساجد في الأحياء التي بنوها والمجتمعات التي سكنوها، (فما ترى جماعة من الأوروبيين سكنوا جهة في مصر وإسكندرية أو الشام إلا وبنوا في كل حارة كنيسة. فهذه جهات الفجالة وشبرا والإسماعيلية والمطرية بها كثير من

الكنائس، وما بني فيها مسجد لمسلم، كأن المسلمين الساكنين بها ليسوا من هذه الأمة)!. فالمقاصد العليا- على الجبهة الدينية- هي (النسخ الديني وتلاشي الإسلام)- كما يقول النديم!.

* ولأن الهدف الأول للإمبريالية هو النصب الاقتصادي لثروات الشرق وخيراته؛ فلقد كان الغزو الاقتصادي الأوروبي للدولة العثمانية الطريق لاحتواء الشرق، ولذلك، وجه النديم اللوم الشديد للدولة العثمانية التي منحت الشركات الأوروبية (امتيازات المرافق الأساسية في بلادها. لقد أعطت السكك الحديدية التزامًا للأوروبيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرًا، وهم فرنساويون أو إنكليز باطنًا، مع أن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى جسم الإنسان).

وهكذا تداخل العامل الديني- الجامع بين بعض الأقليات وبين المستعمرين- مع السعي الاستعماري للسيطرة على الاقتصاد.

* ولقد أفاض النديم في الحديث عن النهب الاستعماري للاقتصاد المصري، فالجاليات الأجنبية التي زحفت على البلاد، في ظل النفوذ الأجنبي وتحت طرب الاستعمار، وفيهم المرابون والمحتكرون، وإن اختلفت جنسياتهم، وتعددت مقاصدهم إلا أنهم((قد اتحدت وجهتهم في التماس الرزق أو التدرج إلى تملك ما بيد المصريين من عقار ومزارع، واتخذت المغالبة على سلب حقوق المصري وسائل لمقاصدها، فالتاجر

التزم الغش والخيانة والكذب والخداع تمايلًا على رواج تجارته الرديئة، والمرابي اتخذ الخيانة والغدر والتزوير طريقة لنزع ما بيد المصري من أثاث وعقار، فابتدأ أمره بدراهم معدودة وانتهى بتحايله إلى قناطير منضودة، وقد التزم طرق الحيلة، فهو وطني ما لأن معه حاكم وطني وساعده على نهب الفلاح وتفليسه، وأجنبي إن ظهر غشه وغدره يحتال لسلب الفلاح بالمحاكم الأجنبية التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها والمستخدم في الحكومة تعصب لجنسه فاجتهد في إبعاد المصريين عن الوظائف الأميرية ووضع وطنيّه مكانه حتى أقفل بيوتًا كثيرة وأفقر أغنياء بقطع مواد الثروة عنهم، ثم تحيز كل جنس من النزلاء في نقطة سكنًا واستيطانًا ليبعد عن المصري ويستقل مع جنسيته بخصائص المجامع التجارية والأدبية والأفكار الإدارية والدولية، واتخذ كل فريق مجمع لهو أو أنس خادعة وصاحبه ومديره من جنسيته حتى لا ينتفع المصري بشيء من الغرباء. ثم اجتمعت كلمة النزلاء على ذم المصري وتقبيح أعماله وأقواله وإظهار خفاياه إلى من يهمهم الإطلاع على عوراته التي يرونها بابًا للدخول في بلاده أو سلب ما بيده، وهذه الأعمال كانت سببًا في غرس الضغائن بين المصري وبعض نزلاء بلاده، إذ لا يتصور أن إنسانًا يتغلب على قوت إنسان ومظهره وأثاثه وعقاره، ثم يرى أنه بعد ذلك يحبه أو يحمده، فإن رأى منه ميلًا أو محبة فإن ذلك نفاق يداري به بعضهم بعضًا، ويتقي به كل منهم شر

الآخر، ولهذا ترى النزلاء لخوفهم على ما بأيديهم من التجارة والأعمال يظهرون التجنس بغير الجنسية الشرقية، ويعدون أنفسهم من الغربيين ليشتركوا معهم فيما يسمحون لهم به من الأعمال.

هكذا خدع الأوروبيون الشرقيين، ولعبوا بأفكار رجالهم، وخاتلوا عظماءهم، مقبحين لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، معلنين أن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، لا حياة لأمم إلا بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتم إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه، ويتعبد بعبادته، ويتقيد بعاداته..

وهكذا تمكنت أوروبا من إدخال مصنوعها في الشرق، لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، حتى أصبح الشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها!..).

* ولقد ميز النديم بين ما في أوروبا من إنجازات حضارية- في العلم، والصناعة، ونظم الحكم- وبين ما عندهم من سلبيات وثغرات، فدعا إلى توجيه النقد للذين يقلدون أوروبا في السلبيات دون الإيجابيات، (إذ ليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء من التهالك في الخمر والمقار والفسوق، وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمة والبلاد ما فيه الصلاح والعمارية).

* ولأن الاستعمار الأوروبي، إمعانًا منه في المكر والخداع، أراد إلباس (قبضته الغربية) (قفازًا شرقيًّا) ليوقع الشرقيين في شراكه وحبائله، فلقد عمد إلى غواية قطاعات من المثقفين الشرقيين الذين صنع عقولهم وفق مناهجه والذين علمهم في مدارس إرسالياته، والذين استأجرهم ضد بني جلدتهم؛ ليكونوا أبواقًا يسوغون لمقاصده ونظرياته، وامتدادات سرطانية بين شعوب الشرق ومنظومات قيمها وقسمات هويتها الحضارية؛ لهذه الحقيقة- التي برزت في عصر النديم، والتي لا تزال بارزة حتى الآن- خاض النديم طوال حياته معركة شرسة ضد هؤلاء (المتغربين المتأوربين العملاء الأجراء)، (فشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده وإغراء الغير بهم طمعًا في ذهب يموت ويتركه فيفني ويبقي ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه. ومن لنا بتوحيد وجهتنا معاشر الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجساد في خدمة الأجنبي، فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية ذرت إليها، فهي قبلة مصادرها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ!، ولا يلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق. ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا بسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط من ملوكه وأمرائه، فالأجنبي المحصن خير للشرقيين من هذا المحتال!. لقد كذب كل من يقول إن الاستظلال بظل الغير حياة للوطنية والمدنية. إن الذين استمالتهم أوروبا فانتموا إليها هم

أجانب منا وإن تكلموا بلغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا، لأنهم لا يقدرون على السعي في مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمة فيها خير لأهله، فإنهم مقيدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قياما بحق نعمتها عليهم).

* هكذا تحدث النديم حديث (فيلسوف الحضارة والتاريخ والنظم السياسية) عندما أجاب على سؤال العصر:

(بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا، والخلق واحد؟!).

***

ويزيد من قيمة هذه الدراسة التي كتبها النديم ونشرها في تسعينيات القرن التاسع عشر، أنه قد فضح فيها مخططات الاستعمار وهو يعيش في قفص الاحتلال الإنجليزي لمصر، وتحت أعين العملاء والأُجراء الذين استحوذ عليهم الشيطان الاستعماري ليكونوا أبواقه وأركان إدارته الاستعمارية في بلادنا.

كما يزيد من قيمة هذه الدراسة الرائدة، مقارنتها بنظيرتها التي كتبها أمير البيان شكيب أرسلان تحت عنوان: (لماذا تأخر المسلمون.. ولماذا تقدم غيرهم؟) بعد دراسة النديم بنحو أربعين عامًا، والتي قدم لها الإمام محمد رشيد رضا (1282 – 1354 هـ، 1865 – 1935م) ونشرتها مجلة (المنار)، وطبعت بمنطقة المنار 1930م؛ ذلك أن شكيب أرسلان– وهو

أحد أئمة العصر علمًا وبيانًا- قد أجاب على سؤال العصر إجابة سريعة، بينما تميزت دراسة النديم بهذا العمق والشمول، الذي جعلها نصًّا من نصوص فلسفة الحضارة والوعي بالتاريخ وفقد الواقع والتبحر في السياسات الدولية، الأمر الذي يزكي تقديمها للباحثين والقراء، وتسليط الأضواء التي تزيح عنها غبار النسيان.

***

ويبقي- في نهاية هذه الدراسة- التساؤل عن مصير هذا التقدم الأوروبي، الذي تحدث عنه النديم، وشكيب أرسلان. هل ما يزال هذا التقدم الأوروبي قائمًا؟، أم أن الحضارة الأوروبية قد شاخت، ودخلت في مآزق بنيوية، يبدو أنها ستأخذ بناصيتها نحو الغروب؟!.

* لقد أفرزت الحضارة الأوروبية- بعد عصر النديم- الفلسفات والنظم الفاشية والنازية والماركسية، التي أفلست، وسقطت، بعد أن كلفت الإنسانية من أمرها عسرًا شديدًا.

* وأفرزت هذه الحضارة الأوروبية الفلسفة الوضعية اللا دينية، التي همشت المسيحية، وأحلت محلها التنوير والحداثة كدين طبيعي، ثم أفلس هذا التنوير وهذه الحداثة فأفضيا إلى التفكيكية والعدمية واللا إدارية التي بشرت بها ما بعد الحداثة، فأصبح الغرب- وخاصة أوروبا- فراغًا دينيًّا،

يتمدد فيه الإسلام، وغيره من عقائد الديانات الوضعية. أي أن عامل (توحيد الجامعة الدينية) الذي مثل أحد ركائز التقدم الأوروبي في عصر النديم قد انهار تمامًا، حتى لقد كتب بابا الفاتيكان (بنديكتوس السادس عشر): أنه يخشى انقراض المسيحية من أوروبا، وأن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين)!.

وشاعت في أوروبا ظاهرة إغلاق الكنائس، وبيعها مطاعم وملاهي وعلب ليل، مع انتشار المساجد في ربوعها!. وها هي فرنسا- التي أعلن قادتها في الجزائر سنة 1930م- وهم يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر- أعلنوا أن عهد الهلال قد ولى، وأقبل عهد الصليب، وأن الجزائر ستكون مهد الحضارة روحها الإنجيل. وأنهم إنما يحتفلون بتشييع جنازة الإسلام في الجزائر!.

ها هي فرنسا- أكبر بلاد الكاثوليكية- التي أعلنت ذلك سنة 1930م، لا يذهب إلى قداس كنائسها إلا أقل من 5 ٪ من السكان، بينما يصلي الجمعة في مدنها وقراها من المسلمين أكثر من ضعف الذين يذهبون إلى القداس!. وها هي إنجلترا الإنجليكانية- التي ترأس ملكتها كنيستها- تتدني نسبة من يعدون أنفسهم مسيحيين إلى 59 ٪ من السكان- بعد أن كانت 71.7 ٪ قبل عشر سنوات!. وترتفع نسبة الملحدين بين سكانها إلى ٪25 بعد أن كانت نسبتهم 14.8 ٪ من السكان قبل عشر سنوات!. ولا يحضر القداس

الأسبوعي في إنجلترا سوى مليون فقط. و10 ٪ من كنائسها قد صنفت (زائدة عن الحاجة)، ومعروضة للبيع!؛ وبسبب انهيار الأسرة، فإن نسبة مواليد المسلمين الإنجليز- وهم 5 ٪ من السكان- تتزايد بشكل ملحوظ، حتى أن اسم (محمد) قد سبق اسم (جورج) في مواليد سنة 2006م، واسم (جاك) و(هاري) في مواليد سنة 2009م!. ولقد أعلن الكرادلة هناك: (أن المسيحية أوشكت على الانحسار في بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرًا في حياة الناس)!.

إذًا، فركيزة (وحدة الجامعة الدينية) التي مثلت أحد أهم عوامل التقدم الأوروبي- الذي تحدث عنه النديم وأرسلان- قد انهار، ولم يعد جائزًا أن نتحدث الآن عن (تقدم أوروبي) في الواقع الذي نعيش نحن فيه!.

وإذا كانت الفاشية والنازية والماركسية قد سقطت سقوطها المدوي والشهير؛ فإن ليبرالية الرأسمالية الغربية المتوحشة قد دخلت- هي الأخرى- نفقًا مظلمًا لن تخرج منه سالمة بأي حال من الأحوال.

وبمناسبة هذه الأزمة المالية لهذه الليبرالية، كتبت المجلة الفرنسية- الفصلية- (التحديات Challanges)- إبان زيارة البابا لفرنسا 2008م- فقالت: (إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو في طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية، ولو طبق رجال البنوك الطامعون بالمردود على الأموال الخاصة- ولو قليلا- الشريعة

الإسلامية، ومبدأها المقدس: (المال لا ينتج المال) فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه)![1].

إذًا، مع انهيار ركيزة (وحدة الجامعة الدينية)، التي قام عليها التقدم الأوروبي– في عصر النديم– لم نعد أمام (تقدم أوروبي)، وإنما أمام غروب لهذا النموذج الحضاري، الذي أصبح وكأنه سليمان– عليه السلام– الذي توفاه الله، بينما عصاه هي التي تحفظ عليه صورة الأحياء!.

وأمام هذه الحقيقة– التي لم يشهدها عصر النديم وأرسلان– يتفرد الإسلام خيارًا حضاريًّا، تظهر حلوله على الدين كله، ولو كره الكافرون!.

فقط، على المسلمين أن يفقهوا الأسباب الإسلامية التي تقدموا بواسطتها قبل أربعة عشر قرنًا؛ ليصلحوا بها حاضرهم ومستقبلهم، كما صلح بها ماضيهم. ويومئذ سنكتب الدراسات التي ستجيب على سؤال العصر– عصرنا نحن: – بم تقدم المسلمون وتأخر الغرب.. والخلق واحد؟!.

---

(1) انظر في هذه الحقائق وما ماثلها كتابنا (الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات) طبعة مكتبة وهبة – القاهرة سنة 1432 هـ، سنة 2011م. وصحيفة (الأهرام) عدد 10 رجب سنة 1434 هـ، 20 مايو سنة 2013م، وكتابنا (الحل الإسلامي لأزمة الرأسمالية العالمية) ص 45، 46 طبعة دار السلام – القاهرة سنة 1430 هـ، سنة 2009م.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1] ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[2]، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[3].

وصدق رسول الله– ﷺ– إذ يقول: (لا يلبث الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره)– رواه الإمام أحمد.

ورحم الله الشيخ حسن البنا (1324 – 1368 هـ، 1906 – 1949م) الذي تنبأ بعودة الإسلام إلى عرش القيادة للحضارة، فقال: (لقد كانت قيادة الدنيا، في وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب

(1) النور: 55

(2) الإسراء: 51

(3) المعارج: 5 – 7

القيادة العالمية. وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى، ويجار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد (شرقية) قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] [2].

إنها نهضة الشرق- بالإسلام- التي تلوح بشائرها في الأفق، والتي حلم بها النديم وأرسلان. وكل أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، والتي ضرب الغرب مشاريعها- منذ محمد علي باشا (1184 – 1265 هـ، 1770 – 1849م) وعرابي (1257 1329 هـ) (1841 1911 م)، وسعد زغلول (1233 1346 هـ) (1857 1927 م)، وجمال عبد الناصر (1336 – 1390 هـ، 1918 – 1970م) والتي يبدو نجاحها مؤكدًا- إن شاء الله- بعد أن دخل الغرب في مأزقه الحضاري الخانق لأول مرة منذ العصر الحديث. وبعد أن سقطت- في بلادنا- أوهام التقدم وفق نماذج الحداثة الغربية.

---

(1) الأعراف: 43

(2) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) – رسالة (نحو النور) ص 60 طبعة دار الشهاب – القاهرة – بدون تاريخ.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

نعم. (وترجون من الله ما لا يرجون). وعلي الله قصد السبيل. وما النصر إلا من عند الله.

29 رجب سنة 1434 هـ

8 يونيه سنة 2013م

دكتور

محمد عمارة

(1) النساء: 104

3

بم تقدم الأوروبيون وتأخَّرنا والخَلق واحد؟!

1
بمَ تقدموا وتأخرنا والخلق واحد؟

هذا السؤال لهجت به ألسنة الشرقيين واشتغل العقلاء به في كل الممالك الشرقية، فغدوا يتساءلون فيما بينهم عن الأوروبيين، ما قدمهم وأخرنا والخلق واحد؟[1].

وكما دار السؤال على ألسنتهم، دار عليها كثير من الأجوبة، وكل واحد يزعم أنه عرف السبب ووقف على علل التأخر، فمنهم القائلون: إن الجوَّ له حكم في انفعال الأجسام بحسب ما تدعو إليه طبيعته، وقد قضى على الشرقيين بالكسل والتقاعد عن الأعمال العمرانية كما قضى على الأوروبيين بالعمل وعلو الهمة، وعللوا ذلك بعلل تفكرها عليهم الأدوار الماضية، فقد أخذ الشرق أدوارًا علمية مدنية استمدت أوروبا مدنيتها من دوره الأخير أيام كانت على أسوأ مما عليه الشرق الآن. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم، وهو علة العلل في هذا الباب، وأصحاب هذا القول كالببغاوات

---

(1) مجلة (الأستاذ) جـ15 – السنة الأولى – الثلاثاء 9 جمادى الأولى 1310 هـ، 21 هاتور 1608، 29 نوفمبر 1892م. ص 337 – 352.

يحكون الصوت ولا يدركون المعني فقد قلدوا في هذا الوهم أوروبيًّا في قوله الذي طارت به الصحف في كل مكان، وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الدين الإسلامي والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام، ومع ذلك فإن تقهقرهم في المدنية والقوى العلمية أكثر من المسلمين، بل لا نسبة بينهم وبين المسلمين في المدنية والألفة بين الناس ومعاشرة المغايرين لهم جنسًا ودينًا. فلو كان الإسلام مانعًا لرأينا الهند والصين في تقدم أوروبا، وحالهم شاهدة بأنهم أحط من المسلمين بدرجات.

ودعوى الأوروبي أن الإسلام سبب لحركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى الآن، وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تفننها في آلات القتال والتدمير، مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة لا يتحرك إلا دفاعًا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية. ولا يحركه إلا فتنة أوروبية. ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي[1] والتعصب الديني، وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبي بدينه كره أن يرى دينًا غيره، وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده لتميل النفوس إلى رجل غيور علي الدين.

(1) أي السياسي.

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته فلم يبطش بها بمواطنيه[1] ولا مدها إلى معاهديه، بل ولا حرَّك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه. ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم، بل خيَّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه، وهذه خصوصية له من بين الأديان، ويكفيه من إطلاق حريَّة الأعمال أن وفدًا من نصارى العرب[2] وفد على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في مسجده، فلما أدركتهم الصلاة قاموا ليصلوا جهة الشرق، فأراد الصحابة التعرُّض لهم فمنعهم النبي وتركهم يصلون في حضرته لغير قبلته وعلى غير ملته. وليس بعد هذا مسلك لحرية الأفكار والأديان.

ومنهم القائلون إن اختلاف الجنس مانع عظيم، وهذا وإن كان له وجه ولكن هناك وحدات أخرى تترك للجنس خصوصيات ومزايا لا تبعده عن الانقياد للسلطة الجامعة للأجناس.

ومنهم القائلون إن الأديان سبب التخاذل الحاصل في العالم ولا سبيل لمنعه إلا بتركها جملة وإعدامها من الوجود، وهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا الذين أفسدوا كثيرًا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام. مع أننا لو

(1) من غير المسلمين.

(2) هو وفد نصارى نجران – باليمن – جاء إلى المدينة سنة 10 هـ.

فرضنا عدم صحة الأديان وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية لكان من الواجب احترامها واعتبارها، فإن تأثير وعدها ووعيدها في النفوس لا يبلغه قانون، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون إما بالبعد عن موجبه[1] وإما بالتحايل على تأويل مواده بالوسائط، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله بأية حيلة على معتقده. ولو ترك الناس وشأنهم لأكل بعضهم بعضًا، ولعجزت أية دولة قانونية عن ضبط أفرادها ولو كان لها في كل ذراع عسكري حارس. وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني، وما فتح الباب لأهل القوانين الوضعية إلا الشرائع الدينية. والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته في حرب دينية انتصارًا للدين، وإقدامه في الحرب الدينية يفوق إقدامه في الحرب الملكية أضعافًا، وما يدعوه للدخول في ساحة القتال إلا الطمع الأخروي الآتي به الدين. فلو علم العسكري أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال، فإن أرغم قاتل مُكرهًا. ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمار الموت، فإنه إذا علم أنه يقدَّم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراده ولا ثواب ولا نعيم فإنهُ لا يبيع حياته بلذة غيره.

وإذا بطل هذا كله لزمنا البحث في العلل التي أوجبت التأخر ولا نتوصل إليها إلا بمعرفة الأسباب التي قَدَّمت أوروبا، فبضدها تتميز الأشياء.

(1) في الأصل: موجبها.

السبب الأول

لا ينكر أن ممالك أوروبا كانت دوقات وكونتات وإيالات وممالك صغيرة وكبيرة، وأن الذين صيروها إلى ما هي عليه الآن عائلات تسلطت على عائلات وضمت الأجزاء إلى بعضها وصيرت كل قطعة عظيمة مملكة مستقلة. وعندما تغلبت هذه العائلات خافت من تحرك الهمم خلف الاستقلال فهدتها التجارب إلى توحيد اللغة في بلادها لتميت حمية الجنس التي تدفع إليها اللغة فلم يكن في بلاد فرنسا أو إنكلترا أو ألمانيا من يتكلم بغير لغة البلاد، والمراد بعدم التكلم بلغة الغير أن المملكة توحد اللغة في المعاملات والتأليفات والتعليم والمخاطبات فلا يستعملون لغة الغير إلا لضرورة تدعو إليها بحيث لا يتوسع فيها إلى حد أن تسطو على اللغة المحلية. وقد اعتنت الدول بذلك حتى أن مثل البلغار قلدت الدول الكبيرة ومنعت لغات الغير من استعمالها في مدارسها. وبهذا القانون نقلوا كل جنس دخل تحت سطوتهم إلى لغاتهم، فحكمت اللغات على الأجناس التي أخذت بها وصيرتهم كأهلها في الأخلاق والعادات لنسيانهم لغاتهم وانفعالهم بفواعل اللغة الموضوع لها تلك الألفاظ. وملوك الشرق أخطئوا هذا الغرض وتركوا المحكومين يتكلمون بلغاتهم ويتعلمون بها فبقيت الجنسيات حية بحياة اللغة، وظلت[1] خاضعة بقدر ما دعت ضرورة الضعف والفراغ من المعدات،

(1) في الأصل: وذلت.

وكلما فتح لجنس باب ثورة أو محرك لاستقلال تدافع حول الداعي وتفانى في الخروج من أسر الغير، يشهد بذلك الأمم التي حكمها العرب ولم يوحدوا اللغة فيهم فخضعوا بقدر ما استعدوا للخروج من سلطتهم أو للتغلب عليهم حتى تمزقت المملكة وتوزعت في أيدي الثائرين والمتغلبين. والترك والفرس عندما أفرغت إليهم دولة العرب تركوا الناس ولغاتهم ولم يوحدوا لغتهم في محكوميهم لا بطريق الإجبار ولا بطريق التعليم، فبقيت نار الجنسيات تحت ردم انتهاز الفرص حتى نمت المبادئ، فقامت عليها الأجناس ثائرة بنفسها أو منبعثة بتحريك الغير لها. ولا ينكر ذلك إلا من جهل استقلال الفرس والأفغان وبخارى واليمن وتونس ومراكش ومسقط وزنجبار والبلغار ورومانيا والجبل الأسود والسرب[1] وممالك السودان والهند الإسلامية، وقد كانوا تحت السلطة العربية ثم التركية والفارسية بعدها. وهذا الذي أخاف ممالك أوروبا فاتخذت ما حصل للعرب والترك والفرس كتابًا تدرس فيه وقاية ممالكها من العوارض المهددة[2] لوحدة كل أمة منها. وكما اتخذت أوروبا توحيد اللغة لتوحيد الجنسية في بلادها التزمتها في الأمم المتغلبة عليها، ولكنها لم تجعل الانتقال إلى لغتها إجباريًّا، بل التزمت التدرج لذلك بتعميم التعليم بها لئلا ينفر المحكومون إذا علموا سعيها في إماتة لغتهم فهي تخادعهم باسم

---

(1) أي: الصرب.

(2) في الأصل: المعددة.

التعليم، حتى إذا انقرضت الطبقة الحاضرة خرجت التي بعدها مذبذبة، فإذا مضت جاءت الطبقة الثالثة من جنس الأمة الحاكمة لغة ودينًا فتؤمِّن ثورتها وتحركها عليها لكونها صارت منها. وإذا دامت هذه الحرب الخفية قرنًا أو قرنين والشرق في غفلته منحدر في تيار الأوهام ماتت الأجناس العربية والتركية والفارسية والهندية والمغولية والحبشية والإفريقية، وأصبح الشرق مسكونًا بأمم أوروبية لغة ودينًا، وإن ولدوا في آسيا وإفريقيا.

السبب الثاني

عندما تم لكل عائلة أوروبية الاستيلاء على قطعة مخصوصة وحدت السلطة في الجنس المتغلب، فلم تمكن أي إنسان من المتغلب عليهم من أي إدارة فرارًا من توزيع السلطة وضياع القانون بالأهواء والأميال الجنسية، وخوفًا من اتساع سلطة المقهورين بما يحركهم للاستقلال. واستمرت الحال كذلك حتى تم نقل الأجناس لغةً ودينًا وصار المجموع جنسًا واحدًا. وعند تغلب مملكة أوروبية على مملكة شرقية تجعل الإدارات العالية بيد رجال منها لتوحد السلطة وتتمكن من القبض على أزمة القوى الحربية والمالية والإدارية، فتراها تسوق الملايين من الشرق بعشرة رجال منها. وهي لا تمكن أجنبيًّا من إدارتها، فلا ترى روسيًّا قائدًا لجيش إنكليزي، ولا إنكليزيًّا وزيرًا لمالية روسيا، ولا فرنساويًّا وزيرًا لمعارف إيطاليا، ولا إيطاليًّا وزيرًا لحربية فرنسا، وهكذا بقية الدول.

ودول الشرق أخطأت هذا الطريق ولفقت العمال من الأجناس المحكومة وغيرها؛ فانحلت عرى قواها، وكثر فيها الثورات والتغلبات حتى جاءت الدولة العربية فوحدت سلطتها في دورها الأول فنمت مملكتها بكثرة فتوحاتها ونفذت قوانينها الشرعية والوضعية في الممالك التي ربطت خيولها بأبواب ملوكها وأمرائها. فلما اتسع نطاق المدنية وجنح الخلفاء والأمراء إلى الرفاهة والسكون أسلموا أمور إدارتهم إلى الأجناس المحكومة بهم فدعاهم حب الأثرة إلى نزع ما بيد مواليهم وساداتهم، ورجعت العرب القهقرى وكثر المتغلبون، وفسد النظام، وجرت الدماء في كل جهة، وطمعت دول أوروبا فهاجمت الشرق بعد أن كانت ترعد من ذكره، ثم انتهى الأمر بجمع السلطة للأمة التركية، فأخذت دورها الأول بما لا ينزل عن دور العرب، بل تخطت من آسيا لأوروبا، وفتحت بعض قطع منها واستولت عليها قرونًا. وما زالت تزاول الأعمال بنفسها حتى وقفت برزخًا ضيقًا بين أوروبا وبين بلادها وممالك الشرق، ولما انتهت في المدنية إلى حد الرفاهية والخلود إلى الراحة وفوضت أمر كثير من الإدارات إلى غير جنسيتها كانت تلك الأجناس الوسيلة العظمى لتداخل أوروبا في مملكتها وكذلك بقية الممالك الشرقية التي أصبحت ميدانًا للعب رجال أوروبا بعقول أهلها.

السبب الثالث

كل عائلة تغلبت على قطعة في أوروبا وحدت دينها وألزمت المحكومين بالأخذ به وأراقت غزير الدم في سبيل توحيد الجامعة الدينية؛ لئلا تترك بينهم دينًا آخر يوجب النفرة والفتن الداخلية والتداخل الخارجي، وقد اعتنت أوروبا بالدين اعتناءً غريبًا حتى ملأت بكلماته كتب التعليم من أي فن كانت، ورسمت الصليب الذي هو الصورة المحترمة دينًا على الملابس وأواني الأكل والشرب والبُسط والفُرش والآلات وأوراق الزيارة والمباني حتى على أعتاب الأبواب فلا يكاد يقع بصر إنسان على شيء إلا وعليه هذه الصورة المقدسة ليكون الدين في فكر الواحد منهم في كل طرفة عين. ولعلمهم أن وحدة الدين إذا انضمت إلى وحدتي اللغة والسلطة قامت المملكة على أساس متين؛ اهتموا بنقل الأمم الشرقية بطريق التدرج فلم تقهر فرنسا أهل الجزائر وتونس على ترك دينهم كما فعلت إسبانيا في مسلميها عند تغلبها عليهم حيث ألجأتهم إلى التنصر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنكلترا لم تكره مسلمي الهند، ولا روسيا قهرت مسلمي طرغستان والتركمان وغيرهم ممن هم في حوزتها، وإنما التزمت كل دولة أن تعمم لغتها فيهم وأن تفتح المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمة الحاكمة، وتمنع تعلم الدين إلا مبادئ قليلة جدًّا تموه بها على ضعفاء الإدراك ليخرج

المتعلمون فارغين من الدين فيسهل نقلهم لأي دين بعد، فإن تعرضت أمة شرقية لذكر دينها ولو لم تكن محكومة بأمة أوروبية نودي عليها بالتوحش والخشونة والهمجية، وقيل إن هذا تعصب ديني، مع أن التعصب الديني لا يوجد إلا في صنع أوروبا، ولكن القوة تقول للضعف ما تشاء.

وقد أخطأ ملوك الشرق هذا الطريق، واكتفوا بالفتوح أو التغلب على الغير وتركوه على معتقده كما كان يصنع قدماء المصريين والبابليُّون والفرس والهنود وغيرهم، ثم جاء الإسلام فاكتفى من الناس بالأخذ به أو الإذعان لملوكه، وعندما نشر جناحيه في الشرق والغرب ترك أُممًا كثيرة على أديانهم المسيحية والموسوية والبرهمية والمجوسية والوثنية وأعطاهم حرية التعبد من غير أن يتعرض لهم أحد من المسلمين، وهذه مزية لا توجد في دين غيره. ولكنه لم يجن من هذا الغرس الجميل ثناءً ولا شكورًا، بل هاجمت أوروبا بأجمعها الشام بالنزعات الدينية وخربت دياره وأراقت في كل شبر منه دم إنسان فجلبت الدمار على مسلميه ومسيحييه وإسرائيلييه، وأصبح فارغًا من معدات العمران مُحالًا بينه وبين التقدم بسور الفقر الذي بنته أوروبا بيد التعصب الديني. ومع كل هذه الفتن فإن أصول ديننا توجب علينا حسن معاملة من غايرنا دينًا ومعاشرة الوطني والمستوطن معاشرة المثيل وإن عاملنا بضد معاملتنا له؛ لعدم إمكاننا التصرف في أصول ديننا.

ولم تكتف أوروبا بتوحيد الدين في بلادها، بل عقد الأهالي الجمعيات الدينية وربوا لها ألوفًا من القساوسة، وبذلوا لهم الملايين من الذهب وبثوهم في الشرق تحت حماية دولهم وعنايتها فجاسوا خلال إفريقيا وآسيا داعين إلى الدين وقد انحدر الشرق في هذا التيار الذي لا مرسى له ولا مرجع إلا توحيد الدين شرقًا وغربًا. وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق فنامت الأمم في زوايا الإهمال وعكفوا على الملاهي يصرفون فيها الذهب والفضة، وتركوا العلماء والأحباء والرؤساء يجلسون في المساجد والمعابد والهياكل منتظرين من يقطع البراري والقفار؛ ليتعلم منهم الدين، وقد التزموا الطرق البطيئة وصعبوا على المتعلم طريق الحصول على المعارف، ولا نعيبهم بالتقاعد عن جوب الأقطار مع ما هم عليه من الفاقة والحاجة إلى القوت الضروري، وإنما نعيب الأغنياء وأصحاب الأوقاف الذين ضلوا هذا الطريق وجعلوا أموالهم غنيمة لمن لا يستحقها من نائم في تكية، أو شموع لمولد أو نذور أضرحة، حتى من وفق لرصد شيء للتعليم صودر بما لم يكن في حسابه، ولهذا تأخرت المعارف في الممالك الشرقية وعمت الجهالة عوامَّه واقتصر العلماء على التعاليم الدينية في بعض البلاد، وتركت العلوم الرياضية فماتت الصنائع بموت أهلها وعدم بحث الملوك في إحيائها، وغفلة الأمم عن فتح المدارس والمعامل على ذمة الجمعيات الخيرية والتجارية، فأصبح الناس يعدون مخترعات أوروبا من وراء

العقول، وحكموا على أنفسهم باستحالة الوصول إلى تقدم أوروبا لفراغهم من المبادئ العلمية، وبعدهم عن المسائل الدولية.

السبب الرابع

لما تمت تربية أمم أوروبا تحت أحضان ممالكها وجمعياتها العلمية والتجارية، ورأت الدول أنها لو بقيت على التقاطع والتضاغن مع توحيد الدين بينها صارت عرضة للتفاني في سبيل الأطماع وفتحت للشرق بتخاذلها باب تداخل في شئونها الحربية أو السلمية، ولم تجد شيئًا تسد به هذا الباب إلا المعاهدات الدولية لتأمن كل مملكة شر جارتها، وتلتفت لتنظيم إدارتها فاجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا، فتراهم إذا هموا بأمر ضد مملكة شرقية خابر بعضهم بعضًا، فإذا أرضى هذا ذاك وتمت كلمة التداخل والاستيلاء وثبت الدولة العاملة تحت مراقبة أخواتها، فإن فازت بالظفر فذاك، وإن خذلت تداركها الكل، وأوقفوا الشرقية عند حدودها، وكلفوها ما لا يطاق. فإذا انتهت من دورها قامت الأخرى لوثبتها التي أباحها لها الاتفاق، وعلى هذا جرت ممالك أوروبا حتى مكنها الوفاق من التغلغل في إفريقيا وآسيا. وقد أخطأت ممالك الشرق هذا الطريق الجليل فاستبدلت الاتفاق بالنفرة وبث العداوة بين أفراد الأمم، وانتهت العداوة إلى مساعدة دولة شرقية لدولة أوروبية على أمة شرقية مثلها

لاستيلائها عليها وما تشعر أنها واقعة في حبالتها بالقوة أو بالحيلة المالية، ولهذا لا نرى اتحادًا بين ملوك الصين والهند ولا بين هؤلاء والفرس ولا بين المجموع والترك، ولا بين هؤلاء والأفغان وبخارى ومراكش وزنجبار، وبهذا التقاطع تمكنت أوروبا من التداخل بين ملوك تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، فبتقاطعهم صارت ممالكهم أجزاء صغيرة في قارتين عظيمتين؛ فسهل الاستيلاء عليها واحدة فواحدة، وكل ملك ينظر الحاصل لجاره ولا تترك همته لجمع الكلمة الشرقية أو الاتفاق الدفاعي. وكان لأوروبا اليد القوية في إفساد ملوك الشرق وإيقاع العداوة بينهم بالأكاذيب الموهمة حتى صيرتهم أشد عداوة لبعضهم من عداوتهم لها، بل بتلطفها في الخداع والتمويه صارت محبوبة عند البعض من ملوك الشرق. وعلى هذه الأصول الأربعة بنت أوروبا قواعد ممالكها، وبتربية الأمم تحت أحضانها على هذه المبادئ العظيمة تفرع عن هذه الأسباب أسباب ثانوية كانت قوة على قوة، بل صارت مادة الحياة المدنية وتقدم العلم والصناعة واتساع العمران.

◄ السبب الأول الفرعي

إطلاق حرية الكتَّاب في نشر أفكارهم بين الأمم لحياة أفكار العامة باحتكاكها في أفكار العقلاء، وبهذه الواسطة ربَّى الكتاب الأمم وهذبوهم ونقلوهم من حضيض الجهل والخمول إلى ذروة العلم والظهور، ووجدت الدول رجالًا مدربين لم تنفق في تربيتهم درهمًا ولا دينارًا وإنما رباهم المحررون والعلماء.

وقد أخطأ الشرق هذا الطريق فخاف ملوكه من الكتاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها في أذهانهم إلى أن جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات وترجمت كتب الأوائل الحكمية وغيرها، وفتحت بابًا أغلقه الجهل قرونًا طويلة. ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة وجاء وقت المتغلبين فتجزأت المملكة وتصدى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس؛ فانطفأت أنوار العلوم الشرقية وضيق ملوك الشرق على أرباب الأقلام، فبات الصين والهند والعراق وبلاد العرب والجبال والغرب على ما كانوا عليه من عداوة الكُتّاب ونفي الظاهر منهم أو إعدامه حتى ألجئوا كثيرًا منهم إلى الالتجاء لأوروبا وخدمتها بتغرير قومه وتضليلهم؛ انتقامًا أو قيامًا بحق حاميه من الإعدام، ولو أطلق ملوك الشرق حرية التحرير وجعلوا المحررين تحت مراقبتهم، وساعدوا المخلص في خدمة مملكته وجنسه، وأسكتوا المفسد والمهيج لأحيوا الأمم التائهة في القفار وبعثوا فيهم أرواح غيرة وحمية تصان بها الممالك.

◄ السبب الثاني الفرعي

بهداية الأمم الأوروبية إلى المعارف وطرق التقدم تجمع أرباب الأموال منهم لفتح صناديق الأعمال المالية، فتحصلوا بالسهام القليلة على نقود كثيرة واستعملوها في المعامل والتجارة، وساعدتهم الدول فحجرت على مصنوع الغير وتجارته لتروج البضاعة الأهلية وتحفظ الثروة

في داخلية البلاد، وبهذه الطريقة اتسعت الثروة وارتفع الفقراء إلى مقام الأغنياء وأصبحت الممالك تباهي بعضها بثروة أهاليها ووفرة ماليتها.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق، وجمعوا المال لوضعه تحت الأرض خبيئة أو لصرفه في الملاذ والشهوات، وتركوا صنائعهم عرضة للضياع، واستعملوا مصنوع أوروبا حتى أماتوا الصنعة والصُّناع، وحولوا ثروتهم إلى أوروبا، فترى الصانع الشرقي يئنُّ من ألم الفقر وهو جار الغني، ولكنه لا يشعر بأنينه لاشتغاله عنه بالملاذ والملاهي.

◄ السبب الثالث الفرعي

لما رأت دول أوروبا أن المخترعات والصنائع النافعة لا تكون إلا من فريق الفقراء سنت قانون الامتياز والمكافأة والشهادات العلمية والعملية ونياشين الشرف؛ لتبعث في الناس غيرة المجاراة والمباراة في التفنن والاختراع، وكلما اخترع واحد شيئًا كوفئ على اختراعه، والتزمه منه الأغنياء وأرباب المعامل فكثر المخترعون، وانتهت بهم البعثة العلمية إلى استخدام البخار والكهرباء واكتشاف العوالم القديمة والحديثة.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق فحطوا على المخترعين، وتركوهم وأعمالهم وانكبوا على الأجنبي ومصنوعه، وأغمض الملوك عنهم عين الرعاية والاعتبار ففترت الهمم وقعدت عن السعي خلف النافع من بنات الأفكار، واكتفى كل صانع بالبسيط من الأعمال المتداولة التي لابد منها لكل أمة.

◄ السبب الرابع الفرعي

لما رأت دول أوروبا أن الأمية ما تمكنت من أمة إلا عرضتها للضياع والاستسلام إلى الغير؛ عممت التعليم وجعلته إجباريًّا حتى أصبح الأميون يعدون في ممالكها العظيمة. وقد اعتمدت كل دولة على توحيد التعليم فعلمت الأمة الدين وتاريخ الجنس واللغة وأخلاقها وعاداتها والقانون المدني الجامع لوحدة الأمة وتاريخ المملكة وحقوق الملك وواجبات الدفاع عنه، حتى سرت روح الحياة الدولية في كل فرد من أفرادها، واتسع نطاق الأفكار فأصبحوا في حروب فكرية نتائجها الإحياء وامتداد السلطة.

وقد أخطاء الشرقيون هذا الطريق، فتركوا الأمم تائهين في الجهالة العمياء؛ لتوهمهم أن المتعلمين يعارضونهم فيما هم فيه، وما صيّرهم لذلك إلا إسناد بعض الأحكام إلى الجهلة وضعفاء العقول. وقد نامت الأمم الشرقية تحت ردم التهاون وعدم التبصر حتى مات العلم وأهله، وما تحركت طائفة لعقد جمعية تساعد من بقي من العلماء على نشر المعارف وتوسيع دائرتها، بل كل غني وأمير يجعل الذنب للعلماء لتقاعدهم عن جوب البلاد وجوس الفيافي[1] والقفار، وهم يعلمون من شأن العلماء أنهم لا يملكون شيئًا من الذهب والفضة. وقد حبس الأمراء والأغنياء الذهب والفضة وجعلوهما وقفًا للملاهي واللذائذ، وكلما هبت عليهم ريح تبْكيتٍ

(1) الفيافي: الفلوات والأماكن ذات الغلظة.

قالوا ما أخَّر الشرق إلا العلماء. وبموت أهل المعارف احتاج ملوك الشرق لاستخدام أناس من أوروبا يقومون بهم أَوْدَ ممالكهم. ومن نظر لجمعيات أغنياء أوروبا وعدم حصر مدارسها في الشرق والغرب، ورأى أغنياء الشرق وهم يبعثون أولادهم إلى مدارسهم ليتعلموا على قساوسة أوروبا أمور دينهم ودنياهم سفّه أحلامهم وأيقن أنهم العلة الوحيدة في تأخر الشرق عن أوروبا، فالفقير العالم ماذا يقول، والصانع المعدم ماذا يصنع، والعاقل المحتاج ماذا يعمل، وكلٌّ يحتاج إلى المادة ولا مادة إلا جمعيات الأغنياء والأمراء واتجاه الملوك إليها بالعناية والمساعدة المادية والمعنوية.

◄ السبب الخامس الفرعي

لما رأت ممالك أوروبا أن الملوك كثيرًا ما يقعون في خطأ الرأي بالانفراد فيه أحدثوا مجالس الوزراء والشورى التي تقيدت بها الممالك ظاهرًا، فألقت أوزارها على عواتق أعيان الأهالي، ومنتخبيهم لتستمد من أفكارهم ما به يحسن النظام وتبقى المملكة حية بحياة قواها العاملة، وصار للأمم الثقة بملوكهم ووزرائهم لعلمهم أنهم لا يصرفون شيئًا ولا يحدثون عملًا ولا يبرمون أمرًا إلا بمشورة نوابهم، وبتبادل الأفكار بين الوزراء والنواب ظهرت ثمرات عظيمة، واشتد عضد الدول وعظمت قوتها واتسعت تجارتها ومعارفها، وكثر المرشحون للأعمال والإدارات العالية بالتربية في المجالس.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية، فلم يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفًا من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي، وهو وهم لا حقيقة له؛ ولذا نراهم إذا نبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء؛ فرارًا من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء.

◄ السبب السادس الفرعي

أنتجت تربية الأمم على المعارف إحداث أندية السَّمر والتجارة، فاتخذت المجالس العديدة لاجتماع أهل الأفكار ممتزجين ببعض الضعفاء؛ لينقلوا عنهم ويتربوا تحت أحضانهم، وفي تلك المجالس تدور الأحاديث على الأمم والممالك وأعمال الملوك وأخلاق العالم وتاريخ العمران، فكانت هذه المجالس روحًا ثانية في جسد المملكة المتحرك بروح الوزراء والنواب والعمال، وقد علم الملوك حسن مقاصدهم فلم يضيقوا عليهم بشيء يحول بينهم وبين مدارسهم الأدبية.

والشرقيون أخطئوا هذا الطريق وجعلوا مجالسهم قاصرة على الغيبة والنميمة والسعي في أذية فلان ومعاكسة «علان» والتحاسد والتباغض وتقبيح بعضهم بعضًا واللهو واللعب، وانقطعوا عن العالم بالمرة. ومنهم من اقتصر على الإقامة بين أولاده. ومنهم نفر قليل اشتغلوا بالمعارف واضطرهم

تيار المجتمع المدني إلى الانحدار معهم في غالب الأوقات، وقلَّ أن يجتمع جماعة للبحث فيما ينفع الأمة أو الدولة لعلم العقلاء أن أبحاثهم غير معوَّل عليها ولا ملتفت إليها؛ لانصراف معظم الأمة إلى الشهوات.

***

فهذه هي الأسباب التي قدمت أوروبا ونشرت ألوية التقدم في جميع جهاتها، وبالوقوف عليها عرفنا العلل التي أخرت الممالك الشرقية على اختلاف مواقعها، وأوقعتها في فخاخ أوروبا. وعلمنا أن الدين الإسلامي والأديان الشرقية لم تكن السبب في التأخر كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه. والجوُّ هو هو الذي كان فيه المتقدمون من المصريين والفينيقيين والفرس والهنود والعرب والترك، وقد تحققنا أن التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم والتضييق على أرباب الأقاليم والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات. فإذا أطلق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة وتعميم المعارف في المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم؛ أمكنهم أن

يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا. وإلا إذا تركوا هذه الأسباب، وبقوا على ما هم فيه من التقاطع والتحاسد والجهالة؛ كان من العبث تجمعهم في الأندية وتشدقهم بقول بعضهم لبعض: بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا والخلق واحد؟.

2
لِمَ اختَلَفَتْ كَلِمَتُنا إذَا اتَّحَدَتْ وِجْهَتُنَا؟

تتقلب[1] أوجه الكلام بتقلب المقاصد ملونة بطلاء المصلحة أو المدنية أو ضرورات العمران مختلفة باختلاف المآرب والمشارب. وكلٌّ يدعي أنه الخادم الأمين، ويرى أن الحق ما يقوله، والمصلحة فيما يحث عليه، والخير فيما يدعو إليه، فلا يزال كل كاتب ينمق الألفاظ ويتحايل على ستر مقاصده بلثام المحسنات الكلامية والسفسطة الإيهامية حتى إذا فرغ من مقالته اعترضه المتعقبون وأبطلوا براهينه ودحضوا حجته وعارضوا أدلته، وجاءوا بضد ما يدعوا إليه، وحذروا من متابعته وأمروا برد مقالته وبينوا مقاصده، وكشفوا مخبأته وأظهروا وجهته التي يدعي أنها هي وجهتهم زاعمين أن الحق ما في سطورهم والبلاغة نفث صدورهم، وأكدوا للقراء أنهم على الصراط المستقيم، يدعونهم إلى سواء السبيل، ويهدونهم إلى طريق التقدم والنجاح وما فيه خير العباد والبلاد.

---

(1) مجلة (الأستاذ) جـ17 – السنة الأولى– الثلاثاء 23 جمادى الأولى سنة 1310 هـ – 5 كيهك سنة 1609 – 113 ديسمبر سنة 1892م. ص 385 – 391.

فإذا بحث القراء تلك المواعظ وجودها دخانًا صاعدًا من خلال تراب ينذر باشتعال ما تحته من النيران؛ ليصطلوا بتلك الحرارة التي تذهب ما هم فيه من برد وسلام. هنالك يتبيَّنون أن أفواه الكُتَّاب الباسمة ما انضمت إلا على نيوب صِلٍّ[1] يتحيَّن غفلة النائم لينهشه نهشة يسري منها سمه في جميع الأعضاء. فتراهم يجانبون المحتالين ويفتشون كلام المستعملين آلة بيد الغير، ويحذرون من أدلة السوء والخُدَعة؛ الذي يستميلهم بالتغرير والنفاق. ولو ناقشته في مقاصده لأقسم لك الحجة على حسنها واحتياج الحال إليها، وأوهمك أن طرق الإصلاح التي تخالف مشربه هي طرق الإفساد والخلل. وهكذا يفعل ويقول غيره عند تخطيئه أو إظهار خفايا رسائله المزخرفة بتلوين العبارة، ولا يرجع عن دعواه الخدمة العامة وتكلمه عن الرأي العام وسعيه فيما فيه صلاح الأمة واستقامة أحوالها كدعوى غيره.

كثر الشك والخلاف وكلٌّ يدعي الفوز بالصراط السويّ، هذه هي حالة فريق من الجرائد في الشرق بين عربية وإفرنجية، ترى كل جريدة أنها إنما أُنشئت لخدمة الشرق وأهله، وأنها قاصرة على السعي فيما يقدم المعارف والتجارة والزراعة، وأنها لا ترى إلا ما فيه الأصلح للأمة والأولى لها. ثم يتبين من خلال عبارات بعضها ما تخدع به الشرقيين وتدعوهم إلى الغير[2].

(1) الصّل – بكسر الصاد المشددة – وجمعه: أصلال – : الحية الشديدة الخبث.

(2) أي الأجانب المستعمرين.

فإذا أظهرت ذلك جريدة أخرى قامت الحرب بينهما على ساق، ورأيت كلًّا مدفوعًا بيد أجنبية، والشرقيون لعدم تبصرهم واغترارهم بالظواهر يطيرون حول الجريدتين وينقسمون إلى قسمين. ولكنهم بعد هذا الاندفاع يحصل عندهم التبصر، ويرجع كل فريق باللائمة على نفسه عندما يرى أن الجرائد شقت عصا الجماعة وفرقت الآراء بتفرق الأهواء. وهذا الذي علَّم الشرقيين ونبههم على معرفة نسبة الجرائد وخدمتها لأية دولة، فكانت كمدرسة تربت فيها أفكارهم حتى إذا نبغوا في نقد الجرائد لم يعودوا للانخداع بأقوالها والاغترار بتلبيسها.

ولا تعاب الجرائد بتلك المنازع التي نزعت إليها، فإن المحرر إن كان من أمة أخرى فهو يخدم أمته قيامًا بالواجب عليه، وكل من رأى أنه يخدم أمة غير أمته فهو غرٌّ لم يدخل ساحة العقلاء. وإن كان أجيرًا أو مدفوعًا بيد الغير فهو أجنبي يسعى خلف أُجرته لا يبالي باع أباه بها أو أمه. وقليل من نراهم يخلصون النصح ويحثون على خدمة البلاد والأمة ويبينون الواجبات ويدافعون عن الأمة بما في وسعهم وطاقاتهم، فإذا رأوا جريدة محلية أو أجنبية هُضمت حقوق الأمة أو أمرائها أو ملوكها شنوا عليها الغارة ودافعوا دفاع الغيور كما فعل بعض الجرائد المحلية من عربية وإفرنجية في الدفاع عن حقوق الحضرة الخديوية ردًّا لأفكار مُكاتب التيمس أو ذات التيمس. وكما تفعل الجرائد ذلك عند تطرف الجرائد الأجنبية والحط على الشرقيين بما ليس من أخلاقهم وعاداتهم.

ولقد صار للجرائد في مصر والشام شأن وأي شأن فتربت بعباراتهم الأفكار، وتعلمت الأمة كثيرًا من الأصول السياسية، وخاضت في بحار المذاكرات الدولية، وأبعدت في بحث المقاصد التحريرية، حتى صار العامي يميز بين الجرائد إذا سمع باسمها فيقول: جريدة كذا تابعة لدولة كذا، وجريدة فلان تخدم أمة كذا، وجريدة زيد يصرف عليها من مال عبيد، وهذه غايتها خمود أفكار الشرقيين، وهذه تقصد أن ينحاز الشرق لدولة كذا. وهذا أثر اختلاف الجرائد. وهذه التربية وإن حصلت بضد رغبة الجرائد وداعي إنشائها، ولكنها أثبتت لها الفضل في فتح أبواب المذاكرات وجلب الأخبار وتبيين مقاصد الرجال ومحاورات الدول.

ولا نرى الشرق محتاجًا لشيءٍ أهم من نصحاء مخلصين يبينون طرق الإصلاح الحقة، ويغارون على أوطانهم غيرة الحر على حرمه، ولا يميلون إلى النفرة وتفريق الكلمة الشرقية والتفاخر بالاقتدار على الكتابة أو بسعة الاطلاع أو كثرة المعارف أو التحايل على التقبيح والشتم بعبارات يتخيل الكاتب أنها بعيدة عن الأفكار وهي أقرب لفكر العامي من نعله. فما ضر الشرقيين إلا اختلاف الوجهة، واستعمال ألسنتنا العذبة في تحويل أفكار إخواننا عن الوجهة الشرقية إلى الوجهة الغربية، لوقوف المحررين في مقام المرشدين والوعاظ واعتماد الأمم على أفكارهم. ولكن الشرق قريب العهد بالجرائد، ويرى في كثير منها أن أمم أوروبا لا تعتمد إلا عليها ولا

تسمع إلا نصحها، وأنها ألسنة الأمم هناك والمتكلمة بالرأي العام لكونها تترجم عن حزب أو أمة، فاغتر وظن أنها فيه كذلك فانجر خلف كثير منها حتى رأى نفسه على شفا جرف الضياع بضياع كثير من بقاعه، فتنبه وأخذ يتبصر في أقوال الجرائد وما تحت عباراتها من الأشراك الخفية التي ينصبها الأُجراء. والعجب أن الأجير إذا صار في حكم الغير بعد أن يتمم له ما استؤجر لأجله سيق مع الأمة التي أضلها، وعُد من الأفراد الذين خدعهم وأصبح لا مجد ولا شرف. وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده وإغراء الغير بهم طمعًا في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه. ومن لنا بتوحيد وجهتنا معاشر الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجسام في خدمة الأجنبي فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ. وإلا فما بالنا إذا قالت جريدة إن ائتلاف الشرقيين أمر واجب ليشد بعضهم عضد بعض، قامت الأخرى وقالت إن هذا نداء بالتعصب والتجمع، فأدركي يا دولة كذا وتداركي هذه العصابة وبددي شملها قبل أن يستفحل أمرها، وعد سعيها خلف العمران فتنة وثورة. وإذا قالت جريدة ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك عرضًا قامت الأخرى وقالت إن هذه الجريدة تدعو إلى الهمجية وتقهقر

المدنية، وإن سعيها ضد سعي دولة كذا، وهي ضارة بأعمال أمة كذا، وإذا لم تلغ سمع صدى صوتها في الآفاق الشرقية وخيف على التمدن والنفوذ الغربي. وإذا قال كاتب صلاحنا في استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قال له الآخر إننا غير مؤّهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح. وإذا قال خطيب إن سعينا خلف تعلم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظم ثروتنا، عارضه الآخر وقال لا معادن عندنا ولا معامل في بلادنا ولا صُناع فينا ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير. وإذا نادت جريدة بحفظ حقوق ملك شرقي كسلطاننا الأعظم أو أمير كخديوينا المفخم قامت أخرى وقالت إن في ضياع تلك الحقوق حياة البلاد وراحة العباد، فإذا سئلت عمن تحفظ له تلك الحقوق؟ قالت دولة كذا أو أمة كذا، وظنت أنها تنصح الأمة وتسعى في مصالحها بهذا البهتان.

ولا ننكر حقوق الجرائد التي تبذل النصح وتهدي إلى الحق كجرائد أوروبا التي بذلت ما في وسعها في خدمة ملوكها وممالكها، ودافعت عن حقوق أممها دفاع المستميت، فترى جرائد كل أمة جارية على طريق واحد لا تتحول عنه ولا تميل إلى الغير، فإذا تصفحناها على اختلاف مشارب محرريها ومذاهبهم وجدنا في كل كلمة معنًى يدعو إلى الوطنية ويحرض على المحافظة على الحقوق المقدسة والعوائد الأهلية والمذاهب الدينية. ولا يلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في

الشرق فإنه يقيم بذلك الدليل على صدق وطنيته وجدّه في خدمة ملته وانتصابه للدفاع عن دولته، فالذي نسميه خداعًا وتغريرًا من الجرائد الأجنبية بالنسبة لمغايرته لمصالحنا هو عين المجد والشرف لها؛ لكونه وجهتها التي توجهت إليها، سكنت الشرق أو الغرب. ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا بسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه، ينادي إخوانه بلسانهم كأنه ناصح مشفق، ويستعين عليهم بهم، وينفق على إضلالهم من مالهم، حتى إذا استلان عرائكهم قذف بهم في ساحة الغير. والأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال ولقد أثرت أكاذيب مثله في نفوس الشرقيين حتى ميزوا الخبيث من الطيب لثقل الكذب على أسماعهم. ولا نلبث أن نرى الأفكار الشرقية وصلت إلى وحدة صرفة تصدم بها كل هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل. وإنما يوصل الشرقيين لذلك قرع أسماعهم بنصح الجرائد المخلصة محلية كانت أو أجنبية، وتبيين مشارب الجرائد الخادعة ووجهتها والتحذير من فتنتها التي تدعو إليها ومستأجرتها التي تنادي باسمها. إذ ذاك تتجه القوى الفكرية إلى وجهة واحدة في جميع الممالك الشرقية مع مراعاة كل أمة خصائص مملكتها ومزايا متعبَّدها ورجوع المجموع إلى نظام يماثل به نظام أوروبا مدنية وشرفًا واستقلالًا.

ومن العبث أن يتصور وصول الشرق إلى القوَّة العلمية والتجارية والإدارية في زمن يسير، أو عصر هذا الجيل فإن ذلك لا يقول به مجنون فضلًا عن عاقل، وإنما يسعى الحاضر جهده[1] فيأتي من بعده على إثره فتتدافع قوى العلم والعمل عامًا فعامًا، وجيلًا فجيلًا حتى ينتهي توحيد الوجهة إلى حالة لا يقال فيها: لم اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا؟.

(1) في الأصل: جد.

3
أَتَتَقَلَّبُ الأُمم بتَقلُّب الأَحوال، ونحنُ نحنُ؟

نعم[1]، فإن شجر العداوة والحسد مغروس في قلوبنا يُسقَى بماء الحقد، وكلما جف احتكت جذوعه فالتهبت نيرانه، وبات كل شرقيّ يصطلي بنار أخيه المشتعلة بأجزاء ذاته التي يظن أنها تشفي غيظه وتريحه بإحراق من يراه مثيلًا يدافعهُ، أو قرينًا يساويه في الرتبة، وما احترقت إلا أعضاءُ الهيئة الاجتماعية، ولا عدمت إلا دعائم الوطنية والملك. فنحن في انتظار هلاك بعضنا ننتظر خراب ديارنا وضياع أوطاننا واهمين أن ما حصل لزيد إنما هو انتقام منه لعبيد، وما نكب به عمرو وسيلة لرفعة خالد، فالجار يترقب موت جاره مع علمه أنه غير وارثه، والابن ينتظر موت أبيه مع كونه واسطة وجوده، والمرؤوس يرى موت رئيسه مع أنه حجاب بينه وبين الضياع، والمجموع يمقت بعضهُ بعضًا، وكل ذي لب لا شاغل لهُ إلا الفكر في سوء إدارة زيد وعدم انتظام سير عبيد وقعود همة فلان وغفلة

(1) مجلة (الأستاذ) جـ18 – السنة الأولى– الثلاثاء 1 جمادى الثانية سنة 1310 هـ، 12 كيهك سنة 1609 – 20 سبتمبر سنة 1892م. ص 409 – 422.

فلان، وما درى كلٌّ منا أنهُ فرد من الأفراد الذين وُجّه إليهم اللوم وخصهم بالتبكيت، فهو يذم نفسه ويعيبها بما هو فيها، فإنه مرآة أخيه فما تراءى له في ذات أخيه فهو في ذاته، ولكن انحدارنا مع تيار التفاخر بالأوهام وحط بعضنا على بعض واستواءُ جاهلنا وعالمنا وعظيمنا وحقيرنا في خداع كل صاحبه ومنافقة رفيقه بقدر حاجته، وامتلاءُ القلوب بتمني زوال نعم بعضنا أبعدنا عن شاطئ المصلحة الشرقية، فنحن غرقى أوهامنا التي نظنها علمًا وفضلًا وحكمة ونبلًا، ننتظر رحيمًا ينشلنا أو شرقة تقتلنا فننزل إلى قاع بحر الضياع طعمة لحيوان أو رجوعًا إلى العدم.

ولا يتعجلن معترض بالطعن في هذه الأفكار قبل أن يتأمل فيها، فما زرع هذه الضغائن إلا سرعة الاعتراض بغير حق، وتصدي هذا لتزييف كلام ذاك، ودعوى فلان أنه أعلم من فلان، وتسلط شرقي على أخيه لتنمو ثروة غربي أو تعلو كلمته. فهذه أجناسنا الشرقية لم تجتمع للإقامة في إقليم اجتماعها في مصر، وقد اختلفت مقاصد الوافدين والنازحين في أسباب أعمالهم، واتحدت وجهتهم في التماس الرزق أو التدرج إلى تملك ما بيد المصري من عقار ومزارع، ولكنها لم تحسن المعاملة مع بعضها، واتخذت المغالبة على سلب حقوق المصري وسائل لمقاصدها، فالتاجر التزم الغش والخيانة والكذب والخداع تحايلا على رواج تجارته الرديئة، والمرابي اتخذ الخيانة والغدر والتزوير طريقة لنزع ما بيد المصري من أثاث وعقار،

فابتدأ أمره بدراهم معدودة وانتهى بتحايله إلي قناطير منضودة، وقد التزم طرق الحيلة، فهو وطني ما لان معه حاكم وطني وساعده على نهب الفلاح وتفليسه، وأجنبي إن ظهر غشه وغدره يحتال لسلب الفلاح بالمحاكم الأجنبية التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها. والمستخدم في الحكومة تعصب لجنسه، فاجتهد في إبعاد المصريين عن الوظائف الأميرية، ووضع وطنيَّه مكانه حتى أقفل بيوتًا كثيرة وأفقر أغنياء بقطع مواد الثروة عنهم. ثم تحيز كل جنس من النزلاء في نقطة سكنًا واستيطانًا ليبعد عن المصري ويستقل مع جنسيته بخصائص المجامع التجارية والأدبية والأفكار الإدارية والدولية، واتخذ كل فريق مجمع لهو أو أنس خادمه وصاحبه ومديره من جنسيته حتى لا ينتفع المصريُّ بشيء من الغرباء. ثم اجتمعت كلمة النزلاء على ذم المصري وتقبيح أعماله وأقواله وإظهار خفاياه إلى من يهمهم الاطلاع على عوراته التي يرونها بابًا للدخول في بلاده أو سلب ما بيده. وهذه الأعمال كانت سببًا في غرس الضغائن بين المصري وبعض نزلاء بلاده، إذ لا يتصور أن إنسانًا يتغلب على قوت إنسان ومظهره وأثاثه وعقاره ثم يرى أنه بعد ذلك يحبه أو يحمده، فإن رأى منه ميلًا أو محبةً فإن ذلك نفاق يداري به بعضهم بعضًا، ويتقي به كل منهم شر الآخر؛ ولهذا ترى النزلاء لخوفهم على ما بأيديهم من التجارة والأعمال يظهرون التجنس بغير الجنسية الشرقية، ويعدُّون أنفسهم من الغربيين ليشتركوا معهم فيما

يسمحون لهم به من الأعمال. ولا يلام غربي على تداخله في شؤون الشرق وأهله؛ فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمن، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربي.

فإن من داخل الأجناس الشرقية القاطنة بمصر ورأى تفرق الأهواء حول المنفعة الذاتية وكراهة كل جنس لمثله وتقبيح كل فريق عمل الآخر وسعي كل طائفة في إذلال الأخرى مع غفلة المجموع عن ثمرة الاجتماع الشرقي ونتائج قلع الأحقاد وتصاممهم عن سماع الدعاة إلى توحيد الوجهة والسير وذمهم كل من دل على فضيلة أو حذر من رذيلة وتعصبهم على كل نابغ منهم، زاعمين أن ما هم فيه هو ثمرة المعارف ونتيجة العلوم، واهمين أن الفضل في قلب الحقائق وجعل الباطل حقًّا والخطأ صوابًا، علم أن الشرق إنما أضاعهُ أهله، وأفقره بنوه وأذله نبهاؤُه. ومن رأى التقاطع الحاصل بين ذوات المصريين الأول وبين القائمين بالأحكام الآن، وتمدح الفريق الثاني برأيه وتدبيره، وذم السابقين بالجهالة والخشونة، وكراهة الفريق الأول لما هو حاصل من الثاني، ثم رأى تباعد العلماء عن مجالس الأمراء والنبهاء، ونفورهم من المحدثات من غير رد قوليّ أو معارضة فعلية، وحط بعض الناس عليهم بنسبتهم إلى أمورهم براءٌ منها، ثم رأى تحيز أفرقاء الأمة إلى هذه الأقسام، وتوزيع الأهواء حول تلك الغايات الوهمية أيقن أن الوهن تمكن منا معاشر المصريين خصوصًا والشرقيين عمومًا بتخاذلنا وتقاطعنا

وصار وصول الغرباء إلى مقاصدهم أسهل من تناول الماء من عين تجري على وجه الأرض، فلو أبدل الذوات والأمراء والعلماء والنبهاء السابق منهم واللاحق هذه المنافرات والمطاعن الافترائية بتوحيد كلمتهم وتخللوا مجامع بعضهم متذاكرين ومتشاورين وعقدوا عزائمهم على مقابلة تلك العصبيات بعصبية مصرية أو شرقية لها من فضائل الأجناس ما لغيرها، وأخذوا في إصلاح ما بيدهم من الأعمال والإدارات باتفاق الآراء وتدبير شئونهم الخاصة والتزام الاقتصاد وحسن السير لَنَظَرَتْهم أوروبا بعين الاعتبار والإجلال، أمكنهم أن يحافظوا على ما بقي من موجبات الشرف وحياة الوطنية والجنسية.

وإلا فما حظ البلاد من عظماء يجتمعون للمسامرة بما ليس فيه فائدة للبلاد، وشيوخ كل حديثهم ذم الشبان وما هم فيه من الاسترسال خلف الشهوات من غير أن يبينوا لهم طرق الهداية وسبل الاعتدال، وشبانٍ يصرفون أوقاتهم في معاقرة الراح ومنادمة الصباح والتزلف للأجنبي بصرف مياه الوجه والحياة والشرف والثروة. وما فائدة البلاد من غوغاء يبيتون سكارى ويصبحون حيارى، وقد اشتغل عنهم العظماء بالفكاهات والتياترات وحسن المسامرة، وأعرض عنهم العلماء وتركوهم في غيهم يمرحون بلا وعظ ولا تحذير اكتفاءً بمعرفتهم أن ما يفعلونه ضلال وبهتان، واحتقرهم الشبان النبهاء فأبعدوهم أو بعدوا عن مجالسهم وخاللوا النزلاء وخالطوا الغرباء.

غاض والله الدمع، وصرنا نعيَّر بالبكاء الذي هو جهد النساء. كل ما نحن فيه معاشر الشرقيين خبل وهُلاس ولا برء لنا منه إلا بمعرفة التركي حقَّ العربي وفضله، واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته، واتفاق السوري مع المصري، وائتلاف الهندي باليمني، واتحاد العراقي بالفارسي، وارتباط التونسي بالمراكشي، وتوجيه نظر المجموع وهمته إلى ما يسمَّى شرقًا لا ما يسمَّى جنسًا، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء.

فُضَّ فُو رجلٍ يقول: لا ندرك هذه الغاية إلا بثورة نبدد بها جموع النزلاء والغرباء، فإن النزيل إما شرقي تحتاج إليه لكونه أخاك، وإمَّا غربيٌّ عرف منك حسن الخُلُق ووثق بمعاهدات حكومتك فرحل إليك وهو موقن بالأمن على حياته وعرضه وماله. وكذب رجل يقول: إن الاستظلال بظل الغير حياة للوطنية والمدنية، فما يريد أن يفر كل مخلوق إلا من الأسر والاستعباد. لم تقم أوروبا على ساق القوة بعد الضعف عن النهوض إلا بالحصول على القوى الثلاث: قوة العلم، وقوة المال، وقوة العُدد، ونحن الآن في حاجة إلى العلم، فإذا حصَّلناه جاء من بعدنا فعظم به الثروة، ثم يأتي من بعده فيعد بها العُدد، ثم يأتي بعد هؤلاء من يقول للغربيين نحن وأنتم.

ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول العز في الخمول، والسعادة في العزلة، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدي الناس، فإن من توكل على الله كفاه، وهذا الفريق متخلل بين العامة يزعم أنه من الهداة، وهو من المضلين، فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ وغزواته، وفتش في سياسيته السماوية والأرضية، ولأيقن أنه كان أكثر منه توكلًا على الله تعالى، وأزهد في الدنيا وما في أيدي الناس، ولم تقعد به همته العلية عن مزاولة الحروب بنفسه الشريفة، وفصله قضايا الأمة، وجلوسه لتعليم الناس، وسعيه في مصالحهم، ومخاطبته الملوك والأقيال والأمراء، ومعاملته المسلم والمسيحي والموسوي بعدل لا يضمنه الآن أحسن قانون، ولا ينفذه أقوى سلطان، فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم سولت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى الطريق الحق، وما دروا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بحوافظ الدين والملك معًا.

ومن هذا القبيل الذين دونوا دواوين الخطابة وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا والتحذير من المال وجمعه والفرار من المجامع والظهور والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان.

وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة حيث تجتمع الأمة اجتماعًا لا يتفق لأمة أخرى، فيدخل الرجل للصلاة وهو يفكر في عمل يصلحه

وصناعة يتقنها وإدارة يحسنها ومعيشة يوسعها ونظام يحفظه وإخاء يحافظ عليه ووطن يسعى في وقايته، وملك يدافع عنه وحق يطالب به، ويخرج وقد ماتت همته وانصرف عن الأفكار الجليلة بما غرسه الخطيب في فكره من قبح الدنيا وسوء مصير المشتغلين بها. فلو تصدت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس، وقطعت دهورًا في اختراع طريق تصل به هذه الغاية ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء من تحويل الخطابة عن عهدها النبوي إلى ما قاله المتملقون إلى الملوك أو الغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة.

ونحن نستفتي هؤلاء المثبطين: إذا كانت الدنيا يحذر منها فلمن خلقت؟ وإذا كان الاشتغال بها بهتانًا وضلالًا، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا في أيدي المتغلبين ونعد الرضا بذلك ذنبًا ومعصيةً؟.

كل هذا انصراف عما كان عليه السابقون، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب الناس بوقائع الحال، وربما طرأ عليه الأمر في غير يوم الجمعة فيرقى المنبر ويخطب به الناس، وجاء الخلفاء الراشدون على إثره، فكان أبو بكر يخطب بأحوال أهل الردة وخروجهم من الإسلام ووجوب قتالهم، وكان عمر يرتب جيوشه ويولي الأمراء ويفرق الألوية ويعلم الأحكام وهو على المنبر، وكان عثمان يخبر الناس بخراج

البلاد وأحوال الفاتحين وهو يخطب، وكان عليٌّ يذكر الحاصل بينه وبين الثائرين عليه، ويعلم الأحكام، ويوصي الحكام، ويلقن التوحيد، ويقص أخبار السابقين وهو على المنبر، ولم نسمع أن هارون الرشيد خطب من ديوان، أو أن المأمون ألفت له خطبة، أو أن مولاي إدريس[1] جمع له العلماء كلامًا موزونًا مسجوعًا، بل كان يخطب كل خليفة وأمير بما يراه صالحًا للأمة، وما طرأ عليه من وقائع الأحوال الداخلية والخارجية. فعلى العلماء الأفاضل ورجال الخطابة أن يغيروا هذه الطريقة ويخطبوا الناس بضروريات دينهم ودنياهم، فإنهم إن فعلوا ذلك وعلموا الناس الدين والتجارة والملاحة والفلاحة والمعاملة والمخالطة، وذكروا للعامة أحوال ممالكهم وما تحتاجه من العناية بها والسعي في حفظها، ونبهوهم على الوقائع الحاصلة في ممالك الغير تحريضًا على المجاراة أو تحذيرًا من الوقوع فيها، وحذروهم من الفتنة والدخول فيها والهيجان والقرب منه، وعلموا الناس الحقوق الوطنية والمدنية وواجبات العمران ومقدماته واجتهدوا في ذلك أثروا في النفوس تأثيرًا غريبًا وقادوا الأمة إلى التقدم بسرعة عجيبة وفعلوا في النفوس والقلوب ما لا تفعله الجرائد وأوامر الملوك والسلاطين.

---

(1) إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثني – أبو القاسم – (177 – 213 هـ، 793 – 828م) ثاني ملوك الأدارسة في الغرب الأقصي، وباني مدينة فاس سنة 192 هـ.

فإن الجرائد لا يقرؤها إلا العارفون بها وهم عدد قليل جدًّا بالنسبة إلى سواد الأمة الأعظم، ويأخذون ما فيها على أنه وقائع أحوال، وأما الخطبة فيسمعها الأُميُّ والقارئ والعالم والجاهل، ويأخذون كلماتها على أنها إرشاد من واقف موقف النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم، يأمرهم وينهاهم، فتأثيرها في النفوس يكون عظيمًا جدًّا لتعلقها بالدين.

وكأننا بغِرٍّ يقول: إن هذا دعاءٌ للتعصب الديني والدنيوي، فنجيبه بأن هذا أمر ديني لا تتعرَّض الملوك إليه ولا تمنع منه لقيام كل أمة بأمور دينها من غير معارضة، خصوصًا في مصر أو الشرق بأجمعه، فإن أصحاب الأديان ممتعون فيه بحرية لا تماثلها حرية الأفكار في أوروبا، تشهد بذلك الكنائس المشيدة والأجراس المرتفعة والهياكل الهندية والمعابد الإسرائيلية ومدافن الأمم المتغايرة جنسًا ووطنًا ودينًا فلا يحصل في مصر أو الشام أو الأناضول أو بلاد العرب أو الفرس أو غيرها مثل ما حصل في نابولي أيام إقامة حضرة الخديوي الأسبق[1] بها حيث توفي سفيان أغا فاشترى له قطعة أرض ليدفن فيها فلما حملوا نعشه صارت الصغار ترجمه بالطوب من كل ناحية، فلم يتخلصوا منهم إلا بذكر المسيح أمامه، ولا مثل ما يحصل من إرسالهم كل مسلم مات في أوروبا إلى وطنه. ولقد مات

(1) الخديوي إسماعيل (1245 – 1312 هـ، 1830 – 1895م) الذي عزل عن عرش الخديوية سنة 1879م. وأقام بإيطاليا وتوفي بالآستانة.

تلميذ مصري بباريز، فأبى كل فريق دفنه في مقابره حتى أخذه بعض قسوس الكاثوليك فدفنه، فقامت الجرائد تطنطن باسم ذاك الرجل مدحًا وثناءً على قبوله مسلمًا في مقبرة طائفته لكون ذلك غريبًا جدًّا عندهم.

والشرقيون يقبلون ملايين من الأوروبيين في أراضيهم، ولا يُحمدون على شيءٍ من ذلك، كأن أهل الشرق خلقوا عبيدًا لأوروبا. فبهذه الحرية التي تمتع بها الأوروبي في الشرق يتمتع الشرقيون كذلك بإجراء عوائدهم واتخاذ طرق إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، وليس هذا من باب التعصب كما يزعم الدخلاء، وإنما هو من باب تربية الأفكار التي تدعو إليها أوروبا وتريد أن نصل إليها بإقامة جماعة منها بين ظهرانينا. وطريق أوصلتنا إليه أوروبا طريق مأمون، وإلا كانت دعوتها إليه غشًّا وخداعًا، وهي لا ترضى ذلك ولا تقول به.

على أن المسلمين الذين في غير مصر يجرون عاداتهم ولو لم تكن شرعية بأية طريقة توصلهم إليها، كاهل تونس عندما منع الحاكم الفرنساوي ضرب مدفع للإفطار ومدفع للسحور في بعض المدن؛ وعلل ذلك بزيادة المنصرف، فالتزم القاضي بدفع قيمة البارود الذي يصرف في رمضان من استحقاقه، واستمرت العادة، وهي ليست من الدين في شيء فأولى أن نطالب أنفسنا بما فيه صلاح حالنا واستقامة عامتنا، ولتكن الخطبة خالية مما يوغر صدور الشرقيين من ذم وطنيّ غايرهم دينًا، فإن في الإيغار تفريق

الكلمة التي نريد جمعها، وباعثًا لتداخل الأوروبي بعلة طلب الراحة لدينيه الشرقي كما هو جار في معاملة أوروبا لملوك الشرق.

وليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء والرعاة من التهالك في الخمر والقمار والفسوق وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمة والبلاد بما فيه الصلاح والعمارية.

وإذا علم العامي وغيره أن الخطيب يخطب بوقائع الوقت ويحث على ما يناسب الزمان والمكان هرعوا إلى المساجد وكثر المصلون، وعاد للمساجد من يختفون في البيرة[1] حتى يخرج الناس من الصلاة. وإني لأعجب من أناس تركوا الصلاة كسلًا وتهاونًا، وهم يرون أميرهم المفخم[2] حفظه الله تعالى يؤدي أوقاته ويحضر الجماعات في المساجد منتظمًا مع أفراد الأمة في صف من صفوف المسجد، ويسمعون أن خليفتهم الأعظم[3] يذهب إلى المساجد ويصلي مع الأمة، فما بال هؤلاء الناس لا يقلدون ملوكهم ولا يستحيون من الله ولا من الناس. أيرى أحدهم أنه

---

(1) محلات السكر.

(2) الإشارة للخديوي عباس حلمي الثاني (1291 – 1363 هـ، 1874 – 1944م).

(3) الإشارة للسلطان عبد الحميد الثاني (1258 – 1336 هـ، 1842 – 1918م).

حر الفكر، أي لا يعترف بصحة دين، كما يزعم كثير من دهاة أوروبا الذين اتخذوا مشدقتهم بهذه الأضاليل مصائد لضعفاء اليقين من أهل الشرق، فإن كان فيهم من يرى هذا فليقلد من أضله في فعله المدني، فإنه لا يتأخر يوم الأحد عن الكنيسة ولو لم يعتقدها في زعمه ليساوي بني جنسه ودينه فيما هم فيه ويجتمع معهم في روابط الاتحاد وتوحيد الكلمة، ولا ينفر العامة من أصل بُني عليه أساس الملك وحفظ به نظام العمران.

ولسنا في زمن فترة حتى يكون هذا الكلام دعاءً لتجديد دين، وإنما نحن في زمن المشابهة والمماثلة ومجاراة الأمم بعضها بعضًا، وقد امتلأت المحافل والطرق برسائل الأمريكان واليسوعيين[1] وفرقت حتى على المسلمين في مصر والشام وبلاد العرب وعلى المجوس والبراهمة في الهند والصين دعاءً للدين وحثًّا على الأخذ بالدين المسيحي، وما نرى جماعة من الأوروبيين سكنوا جهة في مصر وإسكندرية أو الشام إلا بنوا في كل حارة كنيسة، فهذه جهات الفجالة وشبرا والإسماعيلية والمطرية بها كثير من الكنائس، وما بني فيها مسجد لمسلم، كأن المسلمين الساكنين بها ليسوا من هذه الأمة. فإن قيل إن المساجد كثيرة وهم يذهبون إليها قلنا فلِمَ لم يكتف الأوروبي بالكنائس الأخرى ويذهب إليها.

(1) أي المنصرين الأمريكان- البروتستانت- واليسوعيين- الكاثوليك، وهي رهبانية أنشأتها أغنى طيوس، دي لولا (1491 1556م) 1540م.

والمجاراة تلزمنا بتقليد أوروبا في عملها، فإنها تعد ما نحن فيه همجية وما هي فيه مدنية، فلم نتأخر عنها ونبقى في هجميتنا المذمومة عندها. نرى ارتباط الأجناس مانعًا حصينًا من تبديد ثروتها وإضعاف قوتها، ونحن توزعت أهواؤنا فتبددت قوانا الجامعة للعصبية فلا نسمع من فلان إلا ذم صاحبه ورميه بالعجز عن عمله، وربما أردف هذا الذم بالسعاية بل بالسعي في إيذائه، فنرى الظاهرين منا يصرفون وجهاتهم واعتبارهم في إقفال بيوت إخوانهم ومساعدة الدخلاء والنزلاء بيدهم ولسانهم، مع أننا نرى الناس أمامنا إذا أراد أحدهم الاشتغال بعمل ساعده إخوانه وحسنوه للناس وداروا بين العظماء أو الوجهاء محسنين ومرغبين، وإذا خلا أحدهم من خدمة اجتمعوا وجدّوا في رجوعه أو دخوله في محل آخر، وإذا أفلس أحدهم جمعوا له مالًا وفتحوا له محلًّا يستغله، ونحن على عكس هذا كله.

وكلما زادت معارفنا كلما زاد تقاطعنا، اللهم إلا بعض أناس ممن حنكتهم التجارب ودعتهم المشابهة إلى البحث في المنافع الوطنية والدينية فانبعثت قيم الحمية والغيرة، فهم أساتذة الوقت وعنوان كتاب الفضلاء، وإن لم يتصدوا للتدريس بالصورة المعتادة بين الناس. ولقد أثرت حركات أوروبا في الشرق وسرعة تقلبها في المظاهر الدينية والدنيوية في معظم شيوخ هذا العصر وشبانه؛ فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم الديني والدنيوي فقابلوا بين نهيها عن

التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس في حياة الدين والدعوة إليه ببث المرسلين وتكثير المعابد فتولدت فيهم روح المماثلة فأصبحوا يقولون وغدوا يفعلون.

بين المصريين والشاميين والعرب رابطة الغلة والسلطة في الكل، والدين في معظمهم، والجنس في أغلبهم، والمتاخمة التي تصير المجموع في حكم الوطن الواحد، فلم نرى الهمم مصروفة نحو التفريق وإحداث النفرة بين هذه الأمم المحتاجة إلى الجامعة الشرقية، ولو كانت الهمم مصروفة جهة توحيد الكلمة والاختصاص بالمصالح الوطنية لكانوا سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم. إن كان النفور بسبب الدين فقد انتهى زمن الفتح ورسخت أقدام الأديان ورضي كلٌّ بدينه، فالسعي في النفرة بسببه سعي لمصلحة أوروبا لا للشرقيين. وإن كان بسبب الجنس فقد طال زمن الاختلاط والمعاشرة وكثر التوالد من المتغلبين من أجناس شتى على تلك الجهات حتى كدنا أن نوحد الجنس في سكانها. اللهم إلا في البلاد العربية التي لا يدخلها الخليط. وإن كان بسبب الوطن فقد علمنا احتياجنا لتأكيد الرابطة وتأليف النفوس، وإن كانت السلطة فكلنا أتباع سلطان واحد نأتمر بأمره وننتهي بنواهيه، اللهم إلا بعض أناس استمالتهم أوروبا فانتموا إليها فهم أجانب منا وإن تكلموا بلغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا؛ لأنهم لا يقدرون على السعي في مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمة فيها

خير لأهله، فإنهم مقيدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قيامًا بحق نعمتها عليهم. ولا يضرنا هذا الفريق إذا فتشنا جموعنا وأخرجنا الفريق الزائف من سبيكة المجموع الشرقي، وأخذنا في التواد الجسمي والتواصل القلبي حتى نرى المصريين من مسلمين وأقباط وإسرائيليين والشاميين والترك والعرب والجركس والأرنؤُط والفرس والهنود والأفغانيين وغيرهم تجمعهم المجالس للمذاكرة والمشاورة والاتحاد على مشابهة أوروبا في تقدم العلوم والصنائع والاتفاق على وجهة تتجه إليها الأفكار مهما تقلبت صور الحوادث؛ ليكون لنا مبدأٌ معلومٌ ومشربٌ محفوظ وغاية نسعى إليها، فإن أوروبا تحركنا كل وقت لهذا العمل وترمينا بفساد الأخلاق وخور العزيمة وعدم الثبات على عمل وحبنا للمفاخرة بما لا فخر فيه ولا شرف. وأُمم يدعوهم ما يرونه خصمًا إلى الطريق الذي سلكه حتى دخل بلادهم وهم قاعدون عن السعي، أُمم محتاجون لتخلل النبهاء مجالسهم، وجوس العلماء ديارهم، وبذل الأغنياء أموالهم، وصرف الأمراء هممهم حتى يتم تهذيب العامة ويعرف كل إنسان حده وحقوقه ويسعي كل شرقي في مصلحة بلاده ومنفعة إخوانه، مع المحافظة على الروابط التي ربطتنا بأوروبا، فقد دعت ضرورة التجارة والسياحة وحفظ السلم بين الدول إلى المعاهدات وتبادل الرحلة من وإلى الشرق والغرب. ووحدة الإنسانية رابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا، فلو لم يكن بين الأمم من الروابط إلا الصورة الإنسانية

لكفاها ولكانت أقوى للروابط لحفظ نظام الدنيا العام. ولكن ما حيلة الإنسان فيمن يربونه على عداوة مثله، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه فيخرج منكرًا على مثيله صورته، مدعيًا أن غيره وحشي الطبع همجي السير، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده.

وفي هذا الباب يحسن إسهاب أرباب الأقلام في حفظ الروابط وتبيين طرق التقدم وتفسير قول عمر بن عبد العزيز: (تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور). وكفانا من الخمول والقعود في الزوايا، وحط النبهاء بعضهم على بعض بغير فائدة تؤثر عنهم أو طريقة تنسب إليهم، وخوف الأغنياء من الإقدام على موارد الثروة، واحتجاب العظماء عن الأوساط الذين يبادلونهم المذاكرة تهذيبًا وتنويرًا، فهذا صوت أبنائنا ينادينا في كل بلد شرقيّ: أتتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن؟.

4
أشتات الشرق وعصبيات أوروبا

من[1] نظر في تقدم الشرق في الأعصر الأول قوة وعلمًا ومدنية، وتأخره مبتدئًا بالتقهقر من أربعة قرون مضت، قال: ما لهذه الأمم العظيمة صارت كتفاريق العصا، ورجعت شعوبًا وقبائل وبطونًا وأفخاذًا، وانزوى كل فريق في قطعة من الأرض اتخذها وطنًا فيها ولد وتربي وإن سرت فيه حمية آبائه عنها يدافع وفي إحيائها يموت، وبتعدد الجوامع الشرقية من جنس ولغة ودين ووطن نبذوا الوحدة الاجتماعية ظهريًّا، ومالوا مع الأهواء، وجعلوا المنافع الذاتية والسطوة الشخصية وجهة، فانحلت العرى التي ربطها الجنس العربي الذي دك كثيرًا من عروش أوروبا وجلس على كثير من كراسي ملوكها، وإذا نادى تلك الجموع الخاضعة إليه سمع لبيك لبيك الجواب العربي ممن جوابه(سي سي أو وِي وِي)، وطرد جياده من تهامة فسمع صهيلها في ليون من أراضي فرنسا وفي جميع أراضي إسبانيا

(1) مجلة (الأستاذ) جـ20 – السنة الأولي – الثلاثاء 15 جمادي الثانية سنة 1310 هـ – 26 كيهك سنة 1609 – 3 يناير سنة 1893م. ص 457 – 467.

والبرتغال وصقلية ونابلي وجزائر البحر الأبيض، وسمع صداء في خط الاستواء والممالك الهندية والفارسية والتركية والتركمانية، وإن شئت فقل لم تبق أُذن في آسيا وإفريقيا إلا وقد سمعت صهيل خيل الفريق العربي، حتى لهج كل ناطق باسم(الاءرب أو أرابو). ولتجرده من الانفعالات النفسية، وتحركه بروح الدين وقوة الملك سوَّى بين عربي وتركي وفارسي وهندي وقبطي وشامي، بل بين كل إفريقي وآسيوي، وضم الجموع تحت نظام واحد يرجع إليه رجوع الأبناء إلى أبيهم، فاختلفت المشارب والمذاهب وتوحدت الوجهة الملكية انتظامًا واستيطانًا ودفاعًا، فكنت ترى في المسلمين سنيين وشيعيين وخوارج ومعتزلة ودهرية ومعطلة ودروزًا، وكل قسم من هذه الأقسام يشتمل على مذاهب شتى، وترى في النصارى الروم الكاثوليك والأرثوذكس والمارونية والأروسية[1] والإنجيلية وفرق اليعقوبية[2] والنسطورية[3] واليسوعيين، وما في كل مذهب من الفروع والشعب، وترى في اليهود الهارونية والموسوية والقرَّايين والسامريين، وما في كل قسم من الفروع والأحكام المتغايرة، وربما رأيت كل هذه الأديان بأقسامها وفروعها في بلد واحد يجري كل إنسان في طريقه الديني

(1) الأريوسية: النصارى الموحدون.. أتباع آريوس (256 - 336م).

(2) هم السريان الأرثوذكس. ينسبون إلى أسقف الرها يعقوب البرادعي (541 - 578م).

(3) أتباع نسطور (380 - 451م).

غير معارض في شيء من أصوله أو فروعه أو عاداته، فإذا انتهى من العبادة عاد إلى المجتمع الملكي، وانتظم معه حزبه يؤيده برأيه أو يساعده بما له في الخصائص والمزايا، فإذا سمع الصيحة الجامعة انضم مع عصبيته إلى مجموع العصبيات الشرقية وطوي الخصائص المشربية تحت بساط الحاجة حتى يفرغ من صيانة الوطن والدفاع عن الملك، ثم يعود إلى حزبه يشتغل معه في صالح الوطن والمنفعة العامة من طريق المشرب الخاص تحت عناية عظيم يدبره وعاقل يرشده، فكنت ترى المسيحي والإسرائيلي يقاتلان مع المسلم من ماثلهما دينًا دفاعًا عن الوطن وشرف الملك لاستوائهما معه في الجوامع الوطنية والقوانين الملكية. وهكذا الشأن في كل إقليم وبلد. والقائمون بأمور الأُمة يربون الرجال تحت حضانتهم باحتكاك الأفكار والمشاركة في الأعمال وترقية المؤهلين إلى الرتب العالية بعد التجربة والاختبار والتمرين على شاق الأعمال والتربية في الإدارات المختلفة المواضيع. وبهذه العصبيات ارتفع كثير من العقلاء إلى رتب الوزارة والقضاء وولاية الأقاليم بأصوات حزبه أو جملة أحزاب تؤيد مبادئه وترجو حسن غايته، وانحط كثير ممن تحولوا عن الوجهة الوطنية والحق الدَّولي بسعي الأحزاب المخالفة لحزبه. والمدقق الخبير يجد هذا الاختلاف ظاهري الصورة، يرجع إلى غاية متحدة هي وقاية الوطن والملك.

وعند مخالطة الأوروبيين للشرقيين في الحروب الصليبية، التي عادت على أوروبا بكل خير ومنفعة، أخذوا عنهم هذه الطريقة السياسية، وانقسموا أحزابًا بين حرّ ومحافظ وجمهوري وملكي وكموني[1] ونهليست[2] وسوسيالست[3] ومتطرف ومعتدل، واتخذت كل عصبية وسيلة تتوصل بها إلي حياة الأمة وصيانتها وحفظ الوطن وامتداد سطوة الدولة ونفوذها في التخوم وما يصلح للاستعمار، فاختلفت الوسائل وتعددت العصبيات مع اتحاد الوجهة، فكان للمجموع مبدأ يبني عليه أعماله التي يريد الوصول إلى غايتها، وترقت هذه الأفكار عامًا فعامًا حتى انتهت بهم إلى انتخاب الوزراء بأصوات العصبيات، وعظمت ثقة الأهلين بالحكومات المقيدة بأصواتهم، فنفذت سطوتها في أقاليم كثيرة وممالك متباعدة، ووضع بيت الملك على أساس متين إذ صارت وقايته مفروضة على العصبيات بالمسابقة إلى التقدم الملكي. ولم يجر المجموع تحت حكم وزير يستعملهم آلة في تنفيذ آرائه، بل اتخذ كل فريق رئيسًا عاقلًا مجربًا محنكًا، وعلموا مبادئه وغاياته فصاروا أعضادًا ينصرونه ويؤيدونه وينادون به في الانتخابات وينهبونه على الأغاليط ويساعدونه على امتداد نفوذه المؤيد للدولة بكل ما يقدرون

---

(1) الكمونيست: الاشتراكيون.

(2) النهيليست: العدميون.

(3) السوسياليست: الاجتماعيون.

عليه، وكل رئيس يربي رجالًا يخلفونه إذا انقضى دوره، ويمدونه بآرائهم إذا قبض على زمام الأحكام.

وبهذه الوسائل المحكمة عظمت ثقة الملوك بالوزراء فأسندوا إليهم الأحكام موقنين أنهم يحافظون على الملك أعظم من محافظتهم لو استقلوا بالحكم والإدارة، حتى أنهم لو عينوا سفيرًا أو قنصلًا في جهة قالوا له إن سلفك وقف عند نقطة كذا الدولية، فإذا لم تتمكن من التقدم عليها فاجتهد في محافظتك على ما وصلنا إليه بهمة غيرك. ولهذا لا ترى دولة أوروبية تتقهقر في الشرق أو في جهة أوروبية إلا بقوة عظيمة مشكلة من مجموع دولي.

وفي مقابل هذا الاتقان البديع، مع علمنا بما عليه عصبيات أوروبا، لم نزدد إلا تقهقرًا بإعراض رجالنا الشرقيين عن تربية الخلف والأعضاد، ونوم الأفراد تحت ردم الغفلة أو الخوف الوهمي، فلا نسمع إلا عُزل فلان، وأُسند أمر الوزارة إلى فلان في الآستانة أو طهران أو مصر أو مراكش أو تونس، وإذا بحثنا في المعزول والمولَّى رأينا كلًّا منهما لا يقول إلا برأيه ولا يعتمد إلا على قوته العاقلة وتدبيره الذي كثيرًا ما يراه أحدهم صوابًا وهو خطاء عظيم، ونرى حول كل وزير ووال ومتصرف ومدير ومفتش ومأمور زُمرًا تُوسم بالمحاسيب، وهي أخلاط من الغوغاء والرعاع يستعملهم مع الجهل في الإدارات والوظائف فيعيشون في البلاد عيث الذئب في الغنم المهملة، فإذا عزل أحدهم جاء الثاني بمحاسيبه وطرد السابقين ووضع جماعته

مكانهم فيفعلون فعلهم غير مبالين بسوء ما يرتكبونه لعلمهم أن المنتهى إلى من لا يسألهم عما يفعلون، وبهذا ضاعت المصلحة الوطنية وتوزعت في الشهوات والأهواء، وصرنا نعد العقلاء ثلاثة أو أربعة في الآستانة واثنين أو ثلاثة في مصر، وإذا رأينا تخلخل وزارة أخذنا نهجس ونخمن فيمن يكون بعد الحاضر لعلمنا أنه لا يوجد من المرشحين المؤهلين لهذا المنصب إلا فلان وفلان، وهما لم يربيا أحدًا مدة توليهما الأحكام حتى يخلف الواحد منهم آخر من مشربه، فيسير بسيره ليتمم عمله الذي كان مشتغلًا به، وإنما كنا نرى هذا يشتغل بوضع اللوائح والنظامات وترتيب الأعمال والعمال وإحكام العلائق بين حكومته وغيرها ويسعى في توسيع التجارة والصناعة والزراعة بطرق سهلة، وقبل أن يتمم عمله يعزل ويخلفه من يخالفه مشربًا فيهدم ما بناه ويفسد ما أحكمه ويغير نظامه ويأخذ في مجاراته بإحداث أعمال تنسب إليه ويشتغل بما اشتغل به سابقه، وقبل أن يتمم عمله يُعزل ويأتي غيره على هذه الطريقة. وبهذا السير اختلت ممالك الشرق وكثر فيها الفساد وتمكن الأجانب والدخلاء من الرؤساء الذين لم يربوا أحدًا من أهل بلادهم وخافوا من العقلاء من قومهم، وظنوا أن استخدام الدخيل يقيهم فتنة الرعايا ويؤيد سطوتهم فيهم فأكثروا منهم فجاؤوهم بالمصائب. ولكننا إذا قابلنا أعمالهم بأعمال رجال أوروبا وجدناهم في خطأ عظيم، وقد تحملوا مسئولية أمم عظيمة بإهدارهم طرق الإصلاح. وإننا نرى الآن

المشابهة سرت في رجال الشرق فأخذوا يحاكون أوروبا فيما به يفرون من اسم الهمجية والتوحش وسعوا في جمع كلمتهم وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم مع بقائهم على التفرق وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم وهم حيارى بين المقعد والمقيم.

فلابد أن يكون لكل عصبية وزير مدرَّب يرجعون إليه، فإذا أسندت إليه وزارة أعانوه وساعدوه وبثوا مبادئه وتعاليمه في العالم المحكوم ليقووا بذلك أعماله الداخلية والخارجية، فإذا خالف مبادئهم انضموا إلى العصبيات الأخرى وعارضوه برفع أعماله المختلة إلى الملك أو الأمير حتى يغير وجهته أو يتخلى عن الوظيفة ويتولاها آخر له مبدأ وطني أيضًا تؤيده عصبية أُخرى تحت مراقبة العصبية الثانية كما هو حاصل في بلاد الإنكليز الذين تخللوا ممالك الدنيا بأعمال حزبي الأحرار والمحافظين وإحكام سيرهما في توحيد الوجهة الملكية مع اختلاف الوسائل المؤدية إلى المقصد الإجماعي. نعم إن الآستانة ومصر ليستا متأهلتين للانتخاب وحرية الأفكار كما ينبغي، ولا تتوسع الحكومة بأكثر مما هو حاصل الآن، ولكن إذا اجتمعت الأمة على مبدأ وطني دولي غايته حفظ كرسي الملك الأمير الأعلى، وعقدت إجماعها على الخضوع إليه والرضوخ لأحكامه وتأييده مبادئه وتعضيد مقاصده وحفظ النظام الذي يبثه فيها، وربطت عزائمها على

حفظ مركزه ووجوده في منصة حكمه مؤيدًا باتحاد الأمة معضدًا بانقيادها مسرورًا بما يراه من الأمن وحسن المخالطة والمعاشرة أمكنها أن تعطي لجماعة من الأمراء جانبًا من الاعتماد على هذا الاتحاد والثقة بصالح نية العصبيات، فإذا علم الوزير منهم أنه مسئول بين يدي عصبيته عن أعماله، وهم يرون أن غيرهم يراقب أعمال رئيسهم انبعثت في الوزير حمية الخدمة الوطنية وتقوَّت أفكار عصبيته في مراقبته وبحث أعماله وتنبيهه على كل ما يؤاخذ به أو يلام عليه أو يوجب سقوطه من منصبه. وهذه الأماني وإن كنا لا نثق بالوصول إليها تمامًا في عصرنا، ولكننا إذا بدأنا بتأسيس المبادئ وتخصيص العصبيات وجرينا على ذلك الهوينا جاء من بعدنا على نظام لا يكلفه إلا القيام بما فيه. وهذه العصبيات والأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين الذين دفنوا أجدادهم في البلاد، فهم يخافون أن تطأ خيل الغرباء تلك القبور الحافظة لعظام المجد الوطني والشرف الملكي، ففي مثل بلاد الدولة العلية غير الممتازة تتكون من الترك والعرب والجركس والكرد والأرمن، وفي مثل مراكش والجزائر وتونس تتكون من العرب والإفريقيين، وفي مثل مصر تتكون من المسلمين والأقباط والإسرائيليين، وفي مثل طهران تتكون من الفرس والكرد، وهكذا تتكون العصبيات من أهل كل وطن، ويعقدون عزائمهم أوّلًا عقد إجماع على تقديس مناصب الملوك والأمراء، ثم يبحثون فيمن يمشي بهم في طريق حفظ الملك أو

الأمير من كل ما يمس أي حق من حقوقه المقدسة. ولا يفهم غبي من ذكر العصبيات والأحزاب أن المراد عصبيات إفساد أو أحزاب فتن وحروب، فإن ذلك محض الجنون؛ لأننا محاطون بدول أوروبا وإن كنا في قطعة شرقية، وقد امتلأت بلاد الشرق وممالكه بالأوروبيين متجرين وسائحين ومعلمين وصناعًا، ومع هذا الاختلاط القاضي بالمحافظة على الأمن والراحة فإن افتراق ممالك الشرق واختلاف كلمة معظم أهله يقضي عليهم بالعدول عن كل فتنة توقعهم في حرب أوروبية لا يقدرون على اقتحام عقباتها لاتفاق ممالك أوروبا عليهم واختلاف ممالكهم الشرقية، مع فقد المعدات والمواد الحربية، وإذا كان ذلك مرسومًا بين أعين العقلاء منا استحال تصور التجمع لفتنة أو لمعاكسة دولة أوروبية، وتعين فهم مجاراتنا لأوروبا في اتخاذ طرق المدنية، خصوصًا ونحن معاشر المصريين بين يدي أمير سكنت محبته قلوبنا وتخللت أجزاء ذواتنا وتعلقت آمالنا بهمته العالية وأفكاره المنيرة، ولكننا لا ننسى أننا تحت مراقبة دولة عظيمة تسعى في تقدم مدنيتنا وتوصيلنا لمعرفة حقوقنا الوطنية وتبذل جهدها في نشر التعاليم الأوروبية في أنحاء بلادنا وتفتخر وزراؤها ووكلاؤها بأنهم أوصلونا إلى المدنية وعلمونا كثيرًا من طرق الإصلاح التي كنا نجهلها ونبهونا للمطالبة بحقوق خديوينا المفخم ووطنا العزيز وأرشدونا إلى طرق حرية الأفكار والمجامع، فعملًا بهذه العلوم النفسية واتباعًا لنصائحها واقتداءً برجالها

ينبغي أن نقابل سعيها بالتظاهر أمامها بثمرات أتعابها ليكون فخرها بين الدول بنشأتنا الوطنية وعصبياتنا المصرية أكبر وأعظم وليعلم العالم المدني الأوروبي أنها وعدت ووفت، وإلا فإن بقيت على اجتهادها وبقينا على تقاعدنا كنا علة لما لا نحبه ولبسنا ثوب عار بين الأمم وأصبحت الدولة المراقبة لنا تبكتنا وترمينا بفساد الأخلاق وجبن الطباع وعدم الاقتدار على الاختراع[1]. فعلينا معاشر المصريين خصوصًا والشرقيين عمومًا أن نبحث في طرق أحزاب أوروبا وروابطهم وكيفية سيرهم وموجب استمرارهم على ما هم فيه ونقلدهم بسير لطيف واعتدال في الحركات والسكنات مع لزوم الهدوء وحسن الانقياد والمحافظة على حقوق الأجانب والنزلاء والانتباه لدسائس الدخلاء وفتن الأجراء[2]، ولتكن لكل فريق جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله وتبين له دسائس بقية الجرائد وتنبهه على ما يجب اتخاذه مما تراه صالحًا، آخذة أفكارها عن مجموع أعمال الحزب أو آراء عقلائه بحيث تلزم مشربًا لا تتحوَّل عنه بتحوُّل الأحوال، ولا تتلون أمام

(1) لقد كان النديم مضطرًّا لهذه الملاينة مع الإنجليز- وهي التي تبدو غريبة عن موقفه من الاحتلال- ولكنها كانت شرطًا لبقائه في مصر، وإصداره لمجلته- (الأستاذ)- ومع ذلك لم يتحمل الإنجليز سعيه للإصلاح، فاضطر إلى إغلاق مجلته، وإلى الهجرة حتى مات- في الآستانة- بعيدًا عن وطنه مصر.

(2) الأجراء: هم الذين كانوا يعملون في خدمة سلطات الاحتلال، والذين حرضوا هذه السلطات ضد النديم.

حزبها بتلون المطامع، ولا يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها، فإن الجرائد مدارس الأفكار ومعارضتها إقفال لباب التعلم الأدبي، وإنما تحافظ على مبادئ حزبها، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة، وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد وأخذت كل ما يقال بالقبول من غير بحث في مصدره وما تحته من الدسائس تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر، ولتكن المجامع مطهرة من ذوي الأفكار الفاسدة محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية مصونة من التخاذل والتباغض، متعلقة برئيس لا يختلف في استحقاقه للرياسة اثنان، فإننا إن فعلنا ذلك قالت أوروبا قد عمَّت المدنية واستوى فيها أشتات الشرق وعصبيات أوروبا.

5
لَوَ كُنْتُم مِثْلنا لفَعَلْتُم فِعَلنَا

هي[1] كلمة أوروبا التي ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلاً يحملها عليه الاستعمار الملكي أو الانتشار الديني، وقد أحكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد[2]، وقد أضاف كل ملك أوروبي إلى عنوان الملك حماية الدين فيقول في مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا وحامي الدين المسيحي، أو عبارة أشد وقعًا في النفوس من هذه ليعلم الأمم أنه القابض على زمامي السياسة والدين، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم تأييد الملك واتباعه، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه، فنرى رجال القوة ماشين على نسق واحد كل فيما فوض إليه، لا تفتر لهم همة،

(1) مجلة (الأستاذ) جـ22 – السنة الأولى– الثلاثاء 29 جمادى الثانية سنة 1310 هـ، 10 طوبة سنة 1609 – 17 يناير سنة 1893م – ص 507 – 533.

(2) في هذا الذي كتبه النديم تمت مراقبة سلطات الاحتلال الإنجليزي، كان هجومه على الاستعمار الأوروبي، وعلى التنصير، عنوانًا يشمل تحته الهجوم علي سلطات الاحتلال الإنجليزي في مصر.

ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التي فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الأمم. والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمة الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات، فعقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية، وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه وأوجبه عليه مجاراة جاره في الملك ومباراة نظيره في العلم أو العمل ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده فاشتغلوا بما اشتغل به. وقد بلغوا القصد في بلادهم وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتي الدين والملك سائرين على نور العلم والصناعة فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين، واستوطنوها مراقبين ومتغلبين، وجرائدهم الكثيرة العدد برزت تتسابق في ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة فأصبحت ناقلة للأخبار، ناشرة للآداب، معلمة للعلوم، ومؤيدة للمبادئ، حاثة على المقاصد، منشطة للهمم، مرشدة للأمم، منبهة على الأغاليط، محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتاخم، ناشرة للفضائل، مؤرخة لرجال الفضل والعمل، حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين، خادعة للشرقيين، لاعبة بأفكار رجالهم، خاتلة لعظمائهم، مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم إلا

بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتمِ إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه، ويتعبد بعبادته، ويتقيد بعاداته. هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التي لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان.

قالت أوروبا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس، وإنكم في حاجة إلى مصنوعنا، ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق، لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، وحجرت على ما لابد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها، فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناطول وغيره إنما ينفق ويباع على يد الأوروبي كما يباع وينفق مصنوع بلاده، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية، فلا حظ لهم في الوجود، ولا رغبة لهم في الملك، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها، ومما زادهم بعدًا عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أُجراء يزعمون أنهم نصحاء، يثبطون الهمم، ويرمونهم بالضعف ويوهمونهم عدم صلاح بلادهم للصناعة، ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات، وهم يعلمون أن كثيرًا من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعتها الوطنية، وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها، ومنعت دخول مصنوع الغير حفظًا لثروة

أهلها، فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرقي في قبضة الغربي احتياجًا إليه، وترك الشرق ميدانًا لمسابقة رجال أوروبا، فلا يجدون مصنوعًا يعطل عليهم، ولا معرضًا عن صناعتهم فتبور. وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل، ويظنون أنه من المخلصين، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم وتقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قالت أوروبا: إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية، وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش، فلابد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساوونا في الرتبة، وفتحت لنا البيَر والخمارات والمقامر، وأباحت الزنا والربا، ووسعت دائرة اللهو والخسران، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم أختهم الوطنية آلة للفحش، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها، فهم في رتبة القواد، بل هم هم، ومال فريق إلى القمار فباع الغيط والدار واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقته منها، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف في الملاهي ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الأوروبي مكانه، وصار له خادمًا بعد أن كان عظيمًا محترمًا، وكلما

تهالك الشرقيون على الخمور والملاهي واصلت أوروبا رسائل الخمر، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهي تحويلًا للثروة وإزهاقًا لروح الدين، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة، إذ لو كان الانغماس في الملاهي ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدّت مرتكبه همجيًّا جاهلًا مجنونًا، ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها، ولما كتبت الرسائل العديدة في ذم الخمر والفسوق وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس، وإنما هذه أشراك وفخاخ تنصب في طريق الشرقي حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع في حبالة أوروبا.

ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم، ولا يعقلون مقاصد الدول، ولا يدركون مكايد الملوك، ولا يسعون في صالح بلادهم، ولا يحافظون على دينهم، ولا يعرفون شرف لغاتهم، ولا يحفظون كراسي ملوكهم، ولا يهمهم ضياع أوطانهم، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء، وهي تقول لهم: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قالت أوروبا: إن الشرق في حاجة لتداخل أوروبا لإصلاح إدارته

وماليته وتجارته وتهذيب أُممه بالتعاليم الأوروبية، وأجمع رجال أوروبا على جعله قسمًا مقابلًا لها وربطوا عزمهم على ضمه إليهم الجزء بعد الجزء والقطعة بعد القطعة، على اتفاق معقود بين الدول، هذا لي وهذا لك، ثم تلووا في الدخول فيه تلوي الأفعى، وملكوا بعضه بالتجارة والبذل المالي وبعضه بدعوى مسّ حَقّ دولة أو إهانة بواب قنصل أو حفظًا لطريق مملكة. والداهية الدهياءُ أن ملوك الشرق وعظماءه ملئوا قلوب أُممهم بالأوهام، وخوفوهم من الأوروبي، وأرهبوهم باسم اللورد والبارون والكونت والمركيز والجنرال والأميرال والسير والماجور حتى خيلوا لهم أن الأوروبي ملك يمكنه قلب المملكة أو جنيٌّ يقدر على حرقها فامتلئوا رعبًا وخوفًا، ولبسوا ثوب ذل وهوان، وذلك بسبب المعاملة التي يعاملونهم بها في وقائعهم مع الأوروبيين، وقد اضطروا كثيرًا من الوجهاء والنبهاء الذين ينتفع بهم الوطن والملك إلى الاحتماء بالغير تفاديًا من تلك المعاملة، فكانوا أقوى يد للأوروبي في تداخله واستيلائه على ممالكهم. فلو ربوا رجالهم علي الحماسة، ومرنوهم على الأعمال، وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم، وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة وهذبوهم بالأدبيات، وصانوهم من المفاسد العقلية، وعلموهم العقائد الدينية، وعودوهم على الشعائر الملية، ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وينفعهم،

وأوقفوهم على تواريخ آبائهم، ومسابقات الدول في بلادهم، ودسائس أوروبا، وحذروهم من رجال الفتن والأجراء الذين يخدمون أوروبا باسم المصلحة الشرقية لوجدوا أمامهم رجالًا وأي رجال، ولكنهم أهملوا ممالكهم، وأهدروا حقوق رعاياهم، فأصبح ملوك أوروبا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال، ويقولون: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

ولا لوم على الأوروبيين في ذلك، فإنهم إنما يسعون في مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم، والشرقيون يرونهم يعملون الأعمال العظيمة في بلادهم، وهم ينظرون إليهم نظر المغشي عليه من الموت ولا يتحركون لمجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم، ويرونهم يسلبون أعمال أمرائهم وولاتهم عملًا فعملًا، وهم ناكسو الرؤوس منكمشون في ثيابهم. تسمع منهم أصواتٍ عالية في خلواتهم يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجد والشرف، فإذا خرجوا إلى الطرقات ساقهم أضعف أوروبي بعصاه، وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق إلى الحظائر. بمن نقيس الجزائري إذا شاركه التونسي والهندي والمصري والقبرصي والعدني والمسقطي والزنجباري والبرنوي والبخاري والمروي، والطاغستاني والتركماني والسرخسي وقابله المراكشي والأفغاني برعدة الخائف الوجل، ونظر إليه العجمي والعراقي واليمني والحجازي والنجدي والشامي والسوري

والطرابلسي والأناطولي نظر المتوجس الحذر الذي تبعثه الهمة وتقعده القلة كلما شموا رائحة السلم من دولة جاءهم إنذار الحرب من أخرى سعيًا خلف الدين لا طلبًا لسعة الملك، فإنه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة، ولكن المغايرة الدينية وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيرًا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع. وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا، وأحسنها تبصرًا، وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا. وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها، مع اتساع أراضيها وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها، ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت. وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دولة أوروبية ما قاومت هذه

الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى. ولكنها تلام على إعطاء السكك الحديدية التزامًا للأوروبيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرًا وهم فرنساويون أو إنكليز باطنًا، فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى الجسم، فهي من أعظم العلل التي ستتخذها أوروبا وسيلة للتداخل باسم وقاية أملاك أتباعها. ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التعاون، ويكفي ما جرى وما ذهب منا سدي، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أوهن من العنكبوت، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الدول، فكيف ننفذ شروطًا بيننا وبين رجال جعلتهم الدول ذرائع للتداخل ووسائل لأسوء المقاصد. ولقد أذهلتنا أعمال أوروبا التي لم تسمح لشرقي بامتلاك شبر في أرضها وهي تخرجنا من مساكننا وتقيم فيها بلا شروط معقودة ولا حجة مسجلة، ولكنها معذورة فإنها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهي لا تعترف أننا معها في ثوب الإنسانية، بل تقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا، فلا تقدم على العمل، بل نفعل الشيء على قبول التجربة، فإن نفذ فقد مضى، وإن عورضت فيه التزمت التأويل، كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس حيث

سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحول كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني، ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه إن لم يكن هو هو، ولم ينتطح في إصلاح مواده المخالفة عنزان، ثم تداخلت في الأوقاف واستولت على غلتها ومنعت المستحقين، وطردت كثيرًا من خدمة المساجد اقتصادًا ماليًّا وتخفيفًا دينيًّا، ثم رفتت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفًا من ثورة يدفعونها بها عن بلادهم أو يحمون بها دينهم، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية وألزمتهم بتعلم لغتها، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين، لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينًا فيثورون عليهم أو يلتجئون إلى دولة أخرى، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوروبا والاغترار بوعودها الخلبية وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء.

وهذه دولة الروسيا دخلت مرو وهراة وبخاري باسم حمايتها من أعدائها، وبعثت إليها بتجارتها فنفذت، ثم برجال يساكنون أهلها فمضوا، ثم بعساكر في الحدود فأقاموا، ثم بشروط تربطها بها فأمضيت، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك؛ توصلًا لإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية. وهذه إنكلترا دخلت مصر

باستدعاء أهلها وأخذهم بناصرها بعلة تأييد المركز الخديوي الشريف، ثم زيد على تلك العلة علة بث النظام ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوروبا، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يتراءى لها، ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة، ولكننا مع كثرة سماعنا وتعليمها لنا لم نقلدها في شيء مما دخلت لبثه فينا، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها كأننا في ساحة سيماويٍّ يرينا من أعماله العجائب ونحن في حيرة من ألعابه المدهشة. ومن جهل أعمال إنكلترا في مصر بيناها له ليرى أنه حقيق بما يوجهه إليها من النكير.

أوّلا: أطلقت حرية المطبوعات والأفكار فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء. هذه تقول أنا وطنية أُنادي بأن خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين تحوطهم عناية الحضرة الخديوية الجليلة تحت مراقبة بريطانيا. حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ وفت وعدها وأجلت جندها وتركتهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير والأمة مرتاحة لها. وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم، لا تبالي رضي عنها المصريون أو غضبوا منها. وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة

الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوي، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها. وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهذه علمية تهذب النفوس، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد، وهذه دينية، وهذه حقوقية، وهذه طبية. ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون لا رقيب عليهم ولا جاسوس، ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالًا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم، تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة وتلعب بالأفكار الجامدة، ونحن في بحار اللهو غارقون.

ثانيًا: إنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر وسلمتها إلى المصريين ظاهرًا لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول، ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطنًا بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة والإدارات في الوطنيين أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون، وكانت تتقي باسمهم المطاعن الأوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع، وهم غير محقين فإنها ما دخلت إلا

لتعمل عملًا أمام أوروبا، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط. ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم حملوني ما عندكم من أثاث وحلي وآنية، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص؟ كلا، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه. أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون. أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءَهن شهادات بأنهن صالحات للزنا، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب. أم هل قالوا للمصريين ستنفق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيدًا مكلفين بسدادها إلى روتشلد[1] وغيره. أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصري. أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء. أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن، وربما أعطوا من أخذها شيئًا يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو النبوت. أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء في المصالح حتى

(1) روتشيلد. مصرف يهودي، يعود تأسيسه إلى ماير أنسلم روتشيلد (1743 – 1812م).

أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلًا. أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية لتنسى لغة القرآن، فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراهم. لا والله ما نالوا أملًا، ولا قارفوا عملًا، ولا أذلوا رجلًا، ولا خربوا بيتًا، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين.

ماذا على الإنكليز إذا سعوا في ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ولم يجدوا عائقًا، أيرجعون وهم لهذا مرتحلون؟!. ومن يلومهم إذا وجدوا طريقًا لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات، أيتركونه وهم في جميع بلاد الدنيا طامعون؟!. كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خديويهم وإصلاح بلادهم، وتعريفهم حقوقهم بين الأمم تجمعوا حول أميرهم حاملين كرسي فخامته على رؤوسهم، منادين باسمه قائمين بتنفيذ أوامره محافظين على حقوقه مستميتين في اختصاصهم بأعمالهم والقيام بشعائر دينهم، مجتهدين في حفظ الأمن وخدمة البلاد، حافظين لحقوق الأجانب والغرباء النزلاء والمجتازين، جاعلين محافلهم التي استخدمتها أوروبا في مصالحها محافل وطنية تستخدم أوروبا في مصلحتهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التي تعهدت لأوروبا أن

تعلمها للمصريين وتؤهلهم إليها، ولكنها رأت غير ما ظنت فلا لوم عليها إذا وضعت قدمها على عمائمنا لتعلو جواد الفخر والخيلاء.

لماذا نتألم من أعمالها وأمراؤنا اقتصروا على القعود في القصور وركوب العربيات للتفسح في المنتزهات، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون، ونبهاؤنا في المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والملك شيئًا متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين، فإذا انصرف النبهاء عن وجهتي السياسة والدين فبمن تقوم الأعمال ويتقوَّم أود الحكومة، ويبقى عمود الدين قائمًا كبقية الأديان. أبالإخاء الذي ربطناه بين الأجنبي نتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف؟. وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر في الملك والدين ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم، فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع، ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن شربها المصري وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة. وما الذي استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج غير تقدم الغير وتأخرهم، واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم.

دعونا من المجاملة في الكلام والتستر بما استهجنه العقلاء، ما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية، وقد نجحت في ذلك وقلبت كثيرًا من ممالك أوروبا، وحيث إننا بين يدي حكومة دستورية فلِمَ لم نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تفتخر به إنكلترا أمام أوروبا، وإلا فإن بقى الأمراء في البيوت والنبهاء في المحافل على ما هم عليه، والعقلاء صامتين، والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبي وإرهابه، والخديوي الأعظم ينظر إلى هذه الجموع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العاقين، فلا نعترض على بربر إفريقية فضلًا عن الإنكليز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار.

مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات، وصرنا بين يدي خديوي يريد أن نجاري الإنكليز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية، ونحن عن إرادته السَّنية ساهون. ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصري بالمصريين، ولكننا عن نظره العالي عمون. يتألم من ضياع المصري والاستخفاف به وتركه في زوايا الإهمال أكثر من تألم المبعدين، ولو أحسسنا بما عنده من الآلام لبتنا لمضاجعنا جافين.

إن أوروبا تنظرنا من بعيد لترى أعمالنا وما نتقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنكلترا مما نؤيد به الخديوي الأفخم كمنشورها التداخلي،

ونحن عن هذا كله لاهون. كفوا أيها المصريون عن القيل والقال فقد عيرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل، وأظهروا بين يدي إنكلترا برجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذي جاءت تؤيده، واطلبوا منه حقوقكم المقدسة، واشكروا إنكلترا على ما أوصلتكم إليه من الحرية التي تركتكم تتظاهرون تظاهرًا أدبيًّا طلبًا للحقوق وسعيًا خلف الحقائق والامتيازات الوطنية، فإن كل إنكليزي يراكم في هذا التقاعد وهو يدأب في عمله الليل والنهار يقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

كلكم قائل (بيدي لا بيد عمرو) مضت السنون العشر التي قابلتم غرتها بالأفراح والزين، وطرتم فيها حول الأوهام طربًا وسرورًا، وعميتم عن سوء العاقبة، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحًا وثناءً، وشربتم الخمور جهارًا باسم من استعديتموهم على بلادكم ونصرتموهم بتثبيط إخوانكم، وبذلتم أموالكم وأرواحكم في دخولهم البلاد والتخلي لهم عما بأيديكم من الأعمال ولطالما طأطأتم الرؤوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيمًا وتسليمًا، وبصقتم على وجوه إخوانكم، ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يومًا يقتل فيه مائة ألف مصري. فهذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر، وكيف تتقلب الأحوال بالأهوال على من لم يقرأ العواقب، ومن يلقي نفسه بين نيوب الصَلّ[1] خائفًا من العظاية (السحلية) فقد أبدلت

(1) جنس خبيث من الحيات.

المصائب الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور وضرب دف الندب والرثاء. وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون[1].

مضى أمس بخيره وشره، وجاء اليوم بتحذيره وإنذاره، وقد سار المرحوم أفندينا توفيق باشا إلى جنة ربه. وزين عرش الحكومة المصرية الملحوظ بعناية الله تعالى أفندينا عباس باشا الثاني، ولا عسكرية تطلب منه حقوقًا وطنية فيقال إنها تريد أن تستبد عليه أو تضعف سلطته فأولى أن يستعين بدولة كذا. ولا خوف عنده من أجنبي يهدده بمنشور ينشره ليجعله وسيلة للتداخل العدواني. ولا أحزاب بين يديه فرقتهم الضغائن الباطلة فشقوا عصا الجامعة الوطنية والوحدة الدينية بوسوسة جاهل ونزع محتال. بل هو الهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم، الساعي في منح الوطنيين حقوقهم، وتمتعهم بخصائصهم الإدارية، وما يحتاج في تنفيذ إرادته إلا إلي رجال نبهتهم صدمة أوروبا إلى الرجوع عما هم فيه من الاغترار والاستغفال، فحاطوا أميرهم مخلصين في انقيادهم إليه لينادي بهم رجال إنكلترا قائلًا هؤلاء رجالي الذين تريدون أن تؤيدوا بهم حكومتي النظامية، فضعوا الأعمال في أيديهم واختبروهم فيما يقومون به من الأعمال. هؤلاء الذين ربتهم مصر وشهدت لهم أوروبا ووقفوا مع سابقيهم تسعين سنة يديرون الأعمال بأنفسهم ويصلحون البلاد

(1) الحديث صريح عن المصريين الذين رحبوا بالاحتلال الإنجليزي لمصر.

حتى حاكوا بها مدن أوروبا الشهيرة، بل ربما وجد الأجنبي فيها من الراحة ما لا يجده في أعظم مدن أوروبا. هؤلاء الذين قلتم لأوروبا إذا وجدنا قومًا لهم قدرة على الأعمال، وفيهم استعداد لحفظ الأمن ونشر المدنية سلمناهم بلادهم وودعناهم بسلام، فهلا جربتموهم في عمل. هؤلاء الذين لا يحتاجون لمجاراة غلادستون[1] في سياسته ولا بسمارك[2] في خداعه ولا القيصر[3] في شدته، فإنهم يديرون أعمالاً بسيطة مكفولة بالقوانين والنظامات ليس فيها سعي خلف استعمار ولا اجتهاد في نشر دين ولا تحايل على توسيع حدود، فأية صعوبة في مثل هذه الأعمال. هؤلاء الذين جئتم لتأييدهم في مراكزهم ودفع يد العدوان الوهمي عنهم وقلتم في مصر من الرجال فلان وفلان، ولا يحتاجون إلا إلى مراقبتهم مدة قصيرة في إدارتهم الجديدة. هؤلاء الذين درسوا أعمالكم وحفظوا نظامكم ووقفوا منتظرين تحقيق الآمال وصدق الوعود فعلام تتعبون في تهذيبهم إن كانوا لا يصلحون. وماذا ترجون منهم بعد تعليمهم أصولكم العسكرية والإدارية والمالية والقضائية إن كانوا لا يفلحون. هؤلاء الذين هم أحق وأولى من

(1) غلادستون (1809 – 1898م) زعيم بريطاني، رأس الوزراء عدة مرات. وكان زعيمًا لحزب الأحرار. وعداؤه لمصر وللإسلام شهير.

(2) بسمارك (1815 – 1898م) زعيم ألمانيا، وباني وحدتها القومية، وأحددها السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر.

(3) الإشارة إلى قيصر ألمانيا فلهلهم الأول – غليوم الأول – (1860 – 1888م).

غريب تستخدمونه بأموالهم المتحصلة منهم، وتنفقون عليه من ذهب ما دفعهُ أوروبي ولا حصله غير مصري. فأي مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية؟ أصرنا أقل درجة من فَعْلَة الإنكليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التي ما دخلها شغب ولا تخللها خلل.

وكأني بدخيل يوسوس للأجانب قائلًا: إن الأستاذ[1] يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة، فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء، وتسليط الأوروبيين على كل بلد نودي فيه بالمحافظة على وطنيته، ونحن نضع حجرًا في فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء. إن المصريين قد جربوا أنفسهم في التظاهر بالقوة، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثير والعدد والعدد[2]، والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح، وقادة الجند من الأجانب، ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا الراعي، ولا موجب لحركة الأهالي حركة عدوانية بعد خضوعهم

---

(1) الأستاذ: مجلة عبد الله النديم- التي نشر فيها هذه الدراسة والدخلاء والأجراء- الذين يشير إليهم النديم كثيرًا- هم العاملون في خدمة سلطات الاحتلال بمصر- من الساسة والإعلاميين- وجلهم من نصارى الشوان خريجي مدارس الإرساليات الفرنسية.. وكانت صحيفة (المقطم) لسان حالهم.

(2) الإشارة إلى الثورة العرابية 1881 – 1882م.

لأميرهم وانقيادهم إليه في السر والعلن، وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم لا لمصلحة المصريين معاذ الله ولا لمنفعة المسلمين استغفر الله، فما من مصري إلا وهو يعلم الآن أن أوروبا لا تصدق في قول ولا تفي بوعد ولا تحب شرقيًّا ولا تسعى في خير مصري، وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش. ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة، مع فراغهم من المعدات الآلية وعدم حاجتهم إليها يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشغب أصواتٍ فضلًا عن قعقعة سلاح. وما يدعوهم الأستاذ إلا إلى مجاراة الأوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم، فإنهم لا يجهلون أن كلًّا من البلغار والسرب والجبل الأسود ورومانيا أقام تحت تصرف الدولة العلية أكثر من خمسمائة سنة، وفي هذه المدة ما استطاعت الدولة أن تغير دينهم أو لغتهم أو عادتهم، بل حافظوا على الأصلين العظيمين اللغة والدين، وزاحموا ولاة الترك في الأعمال والإدارات، وأكثروا من الصياح والاستنجاد، حتى وقعت الحرب الأخيرة واستقلوا، فلم يحتاجوا لتجديد لغة أو عهد دين أو إعادة معبد، ووجدوا أنفسهم هم الذين كانوا قبل ذلك

بخمسمائة عام، وقد قوبلوا على ذلك بمدح جميع أوروبا وثنائها عليهم، وكان من أعظم المساعدين لهم بل المحركين لهم نفس إنكلترا التي نريد أن نجاريها في أعمالها أو نجاري من أنجدتهم من بعيد، ونحن أقرب إليها من حبل الوريد. والأستاذ يعرض مقالته على كل عاقل منصف، مصريًّا كان أو غير مصري، وأظنه لا يسمع إلا قول المخلصين: إنها إخبار بحقائق، وطلب بحقوق لا تمس شرف رجل ولا تتعرض لأمة ولا تطعن في سياسة، وإنما هي محض درس تهذيبي لمن يسوءهم قول الأوروبيين: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قضى المسلمون مع الأقباط ثلاثة عشر قرنًا وهم في اختلاط أهل بيت ومعاملة عشيرة واتحاد عائلة ما جرى بينهم يومًا واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين، كما نشاهد ونسمع من طرد اليهود من بلادهم وسلب أملاكهم وحليهم واستحلال تعذيبهم وسوقهم إلى سيبيريا حفاة فيهم القيود والأغلال، وتخييرهم بين الانتقال من دينهم أو الرضا بالأشغال الشاقة في سيبيريا التي هي جهنم العذاب أو جهنم شبيهة بها. ولا فعل معهم المسلمون مثل ما فعلته فرنسا مع الجزويت وهم إخوانها في الدين وإن اختلفوا في المذهب، ولا مثل ما فعله البلغار مع المسلمين من هدم مساجدهم وقتلهم وهم في الجمعة يصلون، ولا مثل ما فعله الروس في الشركس الذين اضطروا لترك أوطانهم وأثاثهم وماشيتهم وهاجروا إلى

بلاد الدولة[1] مشاة لا يحملون إلا أجسادهم. بل بقينا معهم كل هذه المدة نتبادل الوظائف والزيارات، وامتلاك الطين والعقار، فلم نسع في شق عصا اجتماعهم وتفريق كلمتهم لنتخذ ذلك ذريعة إلى أمر مطوي في باطن المستقبل، ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتداخل بها في شأن مصر باسم راحة المسيحي والمحافظة على المعابد المقدسة وإعطاء الأقباط حريتهم في عوائدهم الدينية، بل كان ائتلاف المسلمين بهم حجابًا بين مصر وبين تلك الدعوة التي تعودتها أوروبا تغريرًا وتضليلًا وفتحًا لباب الحروب بعلل وهمية لا وجود لها في الخارج. ولهذا نرى المسلمين متألمين من انشقاق إخوان الوطنية وحل رابطتهم التي مضت عليها القرون الكثيرة وهي أوثق رابطة عقدت عليها القلوب لا الخناصر[2]، والكل يهجس ويخمن في الباعث والعاقبة، فقد أدبتهم مساعي أوروبا الخيرية، ووجدوا تحت كل نصيحة من نصائحها أساليب شتى للإذلال والاستعباد، على أن الأمر لو كان متمحض القبطية لساء المسلمين تنافرهم وهجرهم كنائسهم ومقابلة بعضهم بعضًا بصدور ممتلئة غضبًا وحقدًا بعد أن كانت وعاء ألفة ومحبة، وهذه ثمة المخالطة الأجنبية وحسنة من حسنات أوروبا التي تتصدق بها علينا. ولسنا نتكلم في الشقاق من حيث داعيه، وإنما نتألم

---

(1) الدولة العلية العثمانية.

(2) الإشارة إلى ما طرأ على العلاقات القبطية الإسلامية بفعل الدسائس الاستعمارية.

منه من حيث هو شقاق بين طائفة صغيرة يكفي في فصل القضاء بينها أحد العقلاء حرصًا على الجنسية والجامعة الوطنية، وجبر الصدع قلوب كلها فروع أصل واحد، ولا نتكلم على الباعث الديني بأكثر من أملنا في التوفيق بين الفريقين، وسد الأذن عن سماع الأصوات الأجنبية التي تحرك النفوس وتظلم القلوب وتدخل المجموع تحت كلية: اتفقنا واختلفتم لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

فيا بني مصر، لم تبق قطعة في الأرض إلا والجرائد تنقل لكم أخبارها وتريكم أعمالها، فإذا لم تكونوا أهلًا للاختراع- كما قال لكم أحد الإنكليز- فقلدوا عقلاء أوروبا في أفعالهم، وكفاكم الاغترار بترهات المضلين واللياذ بالأجنبي الذي سلبكم ثوب المجد، ولم يبق إلا أن يأكل لحمكم ويشرب دمكم غيظًا على أمة تدفعها الطوارئ إلى وهدة المصائب وهي قادرة على دفعها ولا تتحرك ولا حركة مذبوح. ليُعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفًا للعصبية الدينية، وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييدًا للجامعة الوطنية، وليكن المجموع رجلًا واحدًا يسعى خلف شيءٍ واحد هو حفظ مصر للمصريين. أيكفينا من الثروة أن نرى أكبر تاجر منا لا تزيد ماليته عن عشرين ألف جنيه، وإذا عددنا هذا القسم قلنا واحد اثنان، فإذا انتهينا إلى التاسع وقفت بنا الأعداد؟ إما تتحرك الهمم الخامدة لفتح محال التجارة شركات وطنية تجمع من سهام قليلة فتربح

كثيرًا وتفتح بيوتًا أغلقت أبوابها أو كادت. أعجزنا عن مجاراة الأمم حتى في هذا العمل الذي يقوم به الأميون والجهلاء الذين تبعثهم ضرورة المعاش إلى اتخاذ طرق الاتجار بالاتحاد؟. ألا تقدرون على عقد شركات تشتري أجزاءً من أطيان الدومين أو الدائرة؛ لتربحوا منها وتستخدموا فيها أخاكم الفلاح وتعوضوا بعض ما أضاعه الإسراف في الملاهي والخروج عن الحد وصيره في يد الأجنبي. أفلا يحسن في أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم تهذبونهم فيها وتعلمونهم وتحولون بينهم وبين الوجهة الأوروبية التي تغرسها ببلادنا مدارس أوروبا في أذهانهم تداركوهم قبل أن تفقدوهم. عرفوهم أنكم آباؤهم قبل أن ينكروكم. لقنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم. حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم. ردوهم إلى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة ليتقربوا بدمائكم إلى من ربوهم وتبنوهم (جاوَزَ الحِزَام الطُبْيَيْن) ومرق السهم من الرمية وأصبح لفيفهم ينادي غافلكم:

فإن كنتُ مأكولًا فكن خير آكلي ... وإلا فأدركني ولمَّا أُمــزَّقِ

وارحمتاه لصبية وضعهم الله تعالى أمانة في أيدينا فخنَّاه فيهم وأسلمانهم إلى أجنبيٍّ يسقيهم شرابًا ما شربه الآباء، ويسوقهم في طريق ما سلكه الأجداد، وكلنا يعلم ذلك علم اليقين، وفيه القدرة على حفظ ابنه

من هذه النزغات السيئة، ولا ندري ما يمنعنا من ذلك. أَأُخذت أبناؤُنا في الحديد وسيقت إلى هذه الساحات الأجنبية، لا والله. أم أكرهنا الحاكم على إرسال أبنائنا إلى الفرير والأمريكان وغيرهم، لا والله. أم جهلنا ما يتعلمونه من مغاير الدين واللغة والعادات، لا والله. نحن الذين سلمناهم بأيدينا وصرفنا على إخراجهم عنا من مالنا، ورضينا بما هم فيه من النقل وسوء التعليم، فنحن عنهم بين يدي الله مسئولون. نعلم أن أوروبا لا تعطي شهادة لتلميذ إلا إذا أحسن لغته كل الإحسان، ولا تدخل تلميذًا يغاير التلامذة مذهبًا إلا إذا صلى على مذهبهم أو يبعدونه عنهم. وتنقل لنا الجرائد أخبارهم وسعيهم خلف تعليمهم الوطنية وحقوق الجنسية فهذه إنكلترا الحريصة على جنسيتها، المتعصبة لدينا أشد التعصب، تطالب الأمة بتعليم أبنائها حقوق الوطن والجنس مع أنه ليس وراء ما هي فيه من ذلك مطلب لطالب. وهذه فرنسا تصدر المناشير إلى الكنائس تلزم الأمة جميعها بالصلوات لله تعالى رجاء أن يخلصها من العراقيل التي هي فيها، وهاتان هما الدولتان اللتان تدعيان انحصار المدنية فيهما فلم لا نقلدهما في المحافظة على الوطنية والجنسية والدين ونادي بذلك في القرى والمدن وحجتنا حجتهم وحاجتنا حاجتهم.

نرى كثيرًا من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حمى الأجنبي لياذًا به وطلبًا لمعروفه، فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلب لكونها

فضلة طعامه وفتات خوانه[1]، وهل جلس في حضرته إلا مهينًا مزدري منظورًا إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد، وهل مكنه من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة في تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه، وهل بش في وجهه مرة إلا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق.

آن والله أن يتبصر المصري ويشابه رجال أوروبا في الأخذ بالحزم والاعتماد على صدق العزم حرصًا على ما بقي وطمعًا في فرص المستقبل وتحقيقًا لآمال الإنكليز في صلاحنا على أيديهم حتى لا يبكتونا بقولهم: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

(طول العمر يبلغ الأمل) وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها، فلا يحملن الطيش الأحمق منا على التهور والتخلق بأخلاق البهيم، فإننا نعلم أن صيانة بلادنا موقوفة على حفظ الراحة ومعاشرة الأجانب والنزلاء بالمعروف، وبقائنا على الهدوء والسكون، وبعدنا عن الفتن التي يحركها الدخيل والأجنبي لمصلحة دولته، فيجني ثمارها ويلحقنا عارها وناهيكم مذبحة الإسكندرية[2] التي تعيرنا بها أوروبا إلى الآن، وهي تعلم من أحدثها من رجالها بحيث تسميهم

(1) الخوان: المائدة يوضع عليها الطعام.

(2) التي حدثت بين المصريين والأجانب في 11 يونيو سنة 1882 م- إبان الثورة العرابية- والتي دبرها عملاء الاستعمار لتكون ذريعة للتدخل الأجنبي، بحجة عجز حكومة عرابي عن حماية أمن الأجانب.

رجلًا رجلًا، وتقدر ما صرف للأجراء جنيهًا جنيهًا، وقد نجت من نسبتها إليها وجعلتها قوباء في غرة مصر ومصر بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ولا ننسى العار الذي ألحقه بنا بعض المأمورين في فتنة طنطا التي دفعته إليها اليد الأجنبية أيضًا فباء بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ولحق ببيته غير مأجور على سعيه ولا مشكور على فعله، وهذا جزاء ضعفاء العقول الذين يتجرؤون على ضرر عباد الله وإهلاكهم في مصلحة من يرضيهم بما لا يساوي قلامة ظفر إنسان. تالله، إنه لو جاز لمصري أن يصرح بكل ما يعلم لذكرنا من الحقائق العدوانية ما يكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون[1]. وفي الإشارة ما يغني عن الخبر. فاعتبروا يا أولي الألباب. ومن لم يقرأ العواقب وقع في المعاطب. والعاقل من اعتبر بغيره. فالله الله أيها المصريون في أنفسكم وأميركم وأعراضكم وأموالكم وبلادكم. جاهدوا أنفسكم في توحيد كلمتكم، وارجعوا بمحافلكم عن أبواب أوروبا وفتنها، واخدموا بلادكم بظهوركم أمة واحدة واقفة على قدم الخدمة لأميرها، والمحافظة على حقوقها، والمطالبة بخصائصها، ولا تشغلكم المظاهر الأجنبية عن تصحيح أغاليطكم وتطهير بواطنكم، ولا تظنوا أنكم عاجزون عن استرجاع مجدكم والقيام بأعمالكم، فإنما أنتم بشر مثل رجال أوروبا، ولكنهم تجمعوا وافترقنا، وعرفوا حقوقهم وجهلناها، ورفضوا نصائح الغير وقبلناها، وحفظوا

(1) كان النديم قطبًا من أقطاب الثورة العرابية، عالمًا بخفايا أحداثها، ومؤامرات الأجانب التي نفذها عملاؤها إبانها.

دينهم ولغتهم وجنسيتهم وتهاونًا في البعض وتركنا البعض، فإذا جاريناهم في طرقهم الوطنية ساويناهم في الخصائص والمزايا، ودونا لنا تاريخًا جليلًا يفتخر به الأبناء وترحم بسببه الآباء. عما قريب تنبش قبور آبائكم، وأضرحة عبادكم وسادتكم، لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى معامل سكر أوروبا حتى لا يبقى هناك أثر لذي مجد من الشرقيين، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدي تراب قبورهم، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها في أوطانهم حتى يزورها الآتي ويقرأ تاريخها العجيب. لا تظنوا أن هذا لسان التخريف أو التزييف، فإنكم إن استبعدتم الأمر وأنتم على ما أنتم فيه من التهاون والإهمال فكل ما هو آت آت، وإن تنبهتم لذلك وحافظتم على أوطانكم بالمحافظة على امتيازاتكم المكفولة ببقاء الخديوي الأعظم في منصة حكمه، مؤيدًا بخضوعكم إليه وتأييدكم مبادئه الوطنية وأعماله الإصلاحية رضي الله عنكم وأرضاكم، وحفظت أضرحة ساداتكم وقبور موتاكم. وما ذلك بعزيز على أمة خالطت كل الأمم، وقرأت تواريخ الممالك، وتعلمت كل ما يلزم للوطن وحكومته، وساح فريق منها بلاد أوروبا وعرفوا طرق التقدم والإصلاح.

أفيليق بمن هذه صفتهم أن يكون غاية تهذيبهم قعودهم على القهاوي وفي الخمارات، أو اجتماعهم للتشاتم والتقاذف بالمدام، والسعي في المضار؟ لا والله، إن هذا لمن أكبر العيوب وأعظم المصائب، ومن لم

تنبهه الحوادث فهو الغافل، ومن لم يؤدبه الماضي أضربه الآتي، أفلا يحركنا قول أوروبا: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

(أنا أخوك فلم أنكرتني) ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد، يسوءُ الاثنين ما ساء أحدهما، فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين، وإن ساكنوهم في مصر ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا، وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها. أبراتب قدرهُ عشرون جنيهًا يبيع المرء منا أخاه ووطنه، بل جنسه ودينه، أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا في خدمة الأجنبي لنعينه على إخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجني على غير جانٍ؟. بئس والله ما أوصلتنا إليه هذه الخزعبلات التي نسميها معارف وآدابًا[1]. زرعنا الأحقاد في قلوبنا بغيًا وعدوانًا. أهلكنا أنفسنا بالعداوة في غير مصلحة جهلًا وحماقةً. فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهةً وجنونًا. بعنا هيئتنا للأجنبي بلا ثمن خبلًا وبلاهة. ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في حفظ الوطنيين وإعلاء كلمة الجنسين لحسدتنا المعالي، ووقفت

(1) كانت الحركة الوطنية في مصر تتخذ من علاقة الدولة العثمانية بمصر أداة لمطالبة إنجلترا بالجلاء عن مصر- التي احتلها إنجلترا وهي ولاية عثمانية.. بينما كانت الحركة الوطنية في الشام- وخصوصًا القطاع المسيحي منها- يخاصم الدولة العثمانية.. وكانت أوروبا تلعب بورقة المسيحية في أوساط المسيحيين الشوام، والموارنة منهم بوجه خاص. وعن هذه المواقف والملابسات يتحدث النديم.

أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال، ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضًا لينتفع الغير بنارهم اصطلاء وطبخًا واستعمالًا فيما يشاء. والعهد قريب، والعود غير عسير، فما نتكلف في جمع الكلمتين وتوحيدهما أكثر من الانصراف عن شياطيننا الذين قاموا فينا خطباء ووعاظًا بدروس يتلقونها اليوم بعد الآخر عن الأجنبي، وتبادل الزيارات والمسامرة في المجامع وإخلاص السير، وما ذلك على الله بعزيز. وإلا إذا بقينا على هذا التنافر والتضاد اتخذنا الأجنبي آلات لتنفيذ أوامره فيوقع بيننا العداوة والبغضاء، وربما انتهى الأمر إلى ما لا تحمد عقباه بجهالتنا واعتمادنا على العضد الأجنبي، وفي ذلك من الخزي والعار ما لا تمحوه أكبر الحسنات. واأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان، لا يفرق بينهم دخيل ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي، فجاءوا من بعدهم، وخالفوا سيرهم، وحالفوا غيرهم، وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم، بل على الاستيلاء عليها، لا لعداوة بين الأمتين، ولا لحرب جرت في الوطنيين، بل برغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ. وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين، فإن الأجنبي يغر الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه، ثم يلحقه بغيرته عند تمام الاستيلاء، ولا يعرف له حقًّا غير خدمته، ولا يفرق بينه وبين من غايره دينًا في الاستخدام والاستعباد.

أنقول هذا وقتنا فنحصل فيه لذاتنا البدنية البهيمية ولا نبالي جاء المستقبل على أهلنا وإخواننا بالعز أو بالهوان. بئس ما يختاره الرجل لنفسه من أن يطعم لقمته مغموسة في دماء جنسه وإخوانه. إن البهيم ليدافع عن جاره فضلًا عن نوعه، فكيف يرضى العاقل أن يكون أقل فضيلة من البهيم. إن كان هناك اعتقاد بجنة ونار فترقبوا إلى الله بما يدخلكم به جنته، وليس ذلك إلا البعد عن مساعدة الأجنبي على إخوانكم، وإن كان الاعتقاد وجود الله وخلود النفس فقط، أو لا رب ولا إله، كما يقول الفريق المدني الأحمق، فبيضوا صحائف التاريخ بمجد خالد وذكر جميل، وإن كان لا اعتقاد رأسًا ولا مجد ولا شرف وإنما هي بهيمية محضة تبعثنا الطبيعيات فيها إلى ما لا تعلق للعقل فيه فيا سوء ما وصلنا إليه.

وبالجملة فإن آخر الدواء الكي، وقد بلغ السيل الزُّبي، فإن رفاءنا هذا الخرق، وشددنا إزر بعضنا، وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوروبا: نحن نحن وأنتم أنتم.

وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقًا بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشي وتصدق في قولها: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

الفهرس